شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

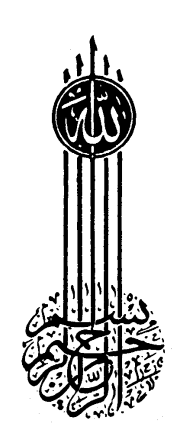
تأليف العلامة
محمد خليل هراس
المدرس بكلية أصول الدين

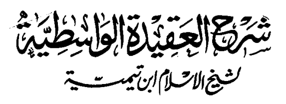
راجعه الأستاذ الكبير
عبد الرزاق عفيفي
رئيس أنصار السنة المحمدية

صححه وعلق عليه في هذه الطبعة
فضيلة الشيخ إسماعيل الأنصاري

دار البصيرة
جمهورية مصر العربية

العنوان: ٢٤ ش كانوب - كامب شيزار - الإسكندرية
تليفون: ٥٩٠١٥٨٠ - محمول: ٠١٢٢٢٤٠٣٦٢


بسم الله الرحمن الرحيم


شرح العقيدة الواسطية
لشيخ الاسلام ابن تيمية

○ رقم الإيـــداع ○
١٩٩٢ / ٣٢٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله قيوم السموات والأرضين وأصلي وأسلم على رسوله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد :

فكتاب شرح العقيدة الواسطية لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليل هراس من أنفس الشروح ، وأوضحها بياناً وأخصرها عبارة ، إلا أنه وقع في الطبعة الأولى بعض أخطاء استدركت في الطبعة الثانية بإرشاد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة العربية السعودية ، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً وبذلك كانت هذه الطبعة ممتازة عن سابقتها . أسأل الله أن ينفع بها وبشرحها المسلمين .

عبد الرزاق عفيفي



بسم الله الرحمن الرحيم

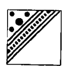
□ مقدمة □

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نبينا محمد ، عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أما بعد) فلما كانت العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أجمع ما كتب في عقيدة أهل السنة والجماعة مع اختصار في اللفظة ودقة في العبارة ، وكانت تحتاج في كثير من مواضعها إلى شرح يجلي غوامضها ويزيح الستار عن مكنون جواهرها ، ويكون مع ذلك شرحاً بعيداً عن الإسهاب والتطويل والإملال بكثرة النقول حتى يلائم مدارك الناشئين ويعطيهم زبدة الموضوع في سهولة ويسر .

فقد استخرت الله تبارك وتعالى ، وأقدمت على هذا العمل رغم كثرة الشواغل وزحمة الصوارف ، سائلاً الله عز وجل أن ينفع به كل من قرأه وأن يجعله خالصاً لوجهه إنه قريب مجيب .

محمد خليل هراس



بسم الله الرحمن الرحيم

اختلفت العلماء في البسملة ، هل هي آية من كل سورة افتتحت بها ، أو هي آية مستقلة أنزلت ، للفصل بها بين السور ، وللتبرك بالابتداء بها ، والمختار القول الثاني .

واتفقوا على أنها جزء آية من سورة النمل وعلى تركها في أول سورة براءة لأنها جعلت هي والأنفال كسورة واحدة .

* والباء في ﴿ **بسم** ﴾ للاستعانة ، وهي متعلقة بمحذوف قدره بعضهم فعلاً وقدره بعضهم اسماً ، والقولان متقاربان وبكل ورد القرآن قال تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وقال : ﴿ باسم الله مجريها﴾ .

ويحسن جعل المقدر متأخراً (لأن اسم أحق بالتقديم ولأن تقديم الجار والمجرور يفيد اختصاص الاسم الكريم بكونه متبركاً به ، والاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى تعييناً له أو تمييزاً) .

واختلف في أصل اشتقاقه ، فقيل : إنه من السمة بمعنى العلامة وقيل : من السمو وهو المختار و همزته همزة وصل ، وليس الاسم نفس المسى كما زعم بعضهم ، فإن الاسم هو اللفظ الدال ، والمسمى هو المعنى المدلول عليه بذلك الاسم .

وليس هو كذلك نفس التسمية فإنها فعل المسمى يقال : سميت ولدي محمداً مثلاً .

وقول بعضهم : إن لفظ الاسم هنا مقحم لأن الاستعانة إنما تكون بالله عز وجل لا باسمه ، ليس بشيء ، لأن المراد ذكر الاسم الكريم

باللسان كما في قوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ أي سبحه ناطقاً باسم ربك متكلماً به ، فالمراد التبرك بالابتداء بذكر اسمه تعالى - .

* (**واسم الجلالة**) : قيل إنه اسم جامد غير مشتق ، لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها ، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له ، فهو كسائر الأعلام المحضة التي لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها .

والصحيح أنه مشتق ، واختلف في مبدأ اشتقاقه ، فقيل : من أَلَهَ يَأْلَهُ أُلوهَة وإلاهة وأُلوهِية . بمعنى عبد عبادة ، وقيل : من أَلِه بكسر اللام يأْلَه بفتحها ألهاً إذا تحير ، والصحيح الأول ، فهو إلٰه بمعنى مألوه أي معبود ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : (الله ذو الإلهية والعبودية على خلقه أجمعين) ، وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفاً في الأصل ، ولكن غلبت عليه العلمية فتجري عليه بقية الأسماء أخباراً وأوصافاً ، يقال : الله رحمن رحيم سميع عليم ، كما يقال : الله الرحمن الرحيم إلخ .

* (**والرحمن الرحيم**) : اسمان كريمان من أسمائه الحسنى دالان على اتصافه تعالى بصفة الرحمة ، وهي صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق بجلاله ولا يجوز القول بأن المراد بها لازمها كإرادة الإحسان ونحوه كما يزعم المعطلة ، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله .

واختلفت في الجمع بينهما فقيل المراد بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء في الدنيا ، لأن صيغة فعلان تدل على الامتلاء والكثرة ، والرحيم الذي يختص برحمته المؤمنين في الآخرة وقيل العكس .

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه الله إلى أن الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، ولهذا لم يجيء الاسم الرحمن متعدياً في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ ولم يقل رحماناً ، وهذا أحسن ما قيل في الفرق بينهما .

وروي عن ابن عباس أنه قال : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر ، ومنع بعضهم كون الرحمن في البسملة نعتاً لاسم الجلالة لأنه علم آخر لله لا يطلق على غيره والأعلام لا ينعت بها .

والصحيح أنه نعت له باعتبار ما فيه من معنى الوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ولا تنافي اسميته وصفيته ، فمن حيث هو صفة جرى تابعاً على اسم الله ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم كقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ .

* (**الحمد لله**) وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة عليّ فهو أقطع أبتر ممحوق البركة »[1] وورد مثل ذلك في البسملة ولهذا جمع المؤلف بينهما عملاً بالروايتين ولا تعارض بينهما فإن الابتداء قسمان : حقيقي وإضافي والحمد ضد الذم ، يقال : حمدت الرجل أحمده حمداً ، ومحمداً ومحمدة فهو محمود وحميد ، ويقال : حمد الله بالتشديد أثنى عليه المرة بعد الأخرى وقال : الحمد لله .

(١) عزاه الحافظ السخاوي في « القول البديع من الصلاة على الحبيب الشفيع » إلى فوائد ابن عمرو بن منده بلفظ : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله ثم الصلاة علي فهو أقطع ممحوق من كل بركة « ثم قال السخاوي » والحديث مشهور لكن بغير هذا اللفظ » وذكر أنه ضعيف . إسماعيل الأنصاري .

....

* (**والحمد**) هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري ، نعمة كان أو غيرها ، يقال : حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على شجاعته ، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ويكون بالقلب واللسان والجوارح قال الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

وعلى هذا فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان في الثناء باللسان ، على النعمة ، وينفرد الحمد في الثناء باللسان على ما ليس بنعمة من الجميل الاختياري ، وينفرد الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة . فالحمد أعم متعلقاً وأخص آلة والشكر بالعكس .

وأما الفرق بين الحمد والمدح فقد قال ابن القيم : إن الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه فلا بد فيه من اقتران الإرادة بالخير بخلاف المدح فإنه إخبار مجرد ، ولذلك كان المدح أوسع تناولاً لأنه يكون للحي والميت وللجماد أيضاً .

* (**وأل**) في الحمد للاستغراق ، ليتناول كل أفراد الحمد المحققة والمقدرة وقيل : للجنس ومعناه : أن الحمد الكامل ثابت لله ، وهذا يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله ؛ إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق ، ولكن غايته أن يكون محموداً من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من حاز صفات

الكمال[1] جميعها .

* (**الرسول**) في اللغة : هو من بعث برسالة . يقال : أرسله بكذا ، إذا طلب إليه تأديته وتبليغه ، وجمعه رسل بسكون السين ، ورسل بضمهما وفي لسان الشرع : إنسان ذكر حر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه . فإن أوحى إليه ولم يأمره بالتبليغ فهو نبي ، فكل رسول نبي ولا عكس فقد يكون نبياً غير رسول .

والمراد بالرسول المضاف إلى ضمير الرب هنا محمد ﷺ .

* (**والهدى**) في اللغة : البيان والدلالة كما في قوله تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ فإن المعنى بينا لهم ، وكما في قوله : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ .

والهدى بهذا المعنى عام لجميع الناس ، ولهذا يوصف به القرآن كما في قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ ويوصف به الرسول ﷺ كما في قوله تعالي : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ .

وقد يأتي الهدى بمعنى التوفيق والإلهام ، فيكون خاصاً بمن يشاء الله هدايته ، قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره

(١) عبارة ابن القيم من مدارج السالكين : (وغايته أنه محمود من وجه دون وجه ولا يكون محموداً بكل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولى على صفات الكمال جميعها فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها) هذا نص عبارة ابن القيم وقد حصل في نقل المؤلف لها خلل ظاهر فليتنبه لذلك . إسماعيل الأنصاري .

للإسلام ﴾ ولهذا نفاه الله عن رسوله ، قال تعالى : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ .

والمراد بالهدى هنا كل ما جاء به النبي ﷺ من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح .

* (**والدين**) يأتي لعدة معان ، منها الجزاء كما في قوله تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ومنه قولهم : (كما يدين الفتى يدان) .

ومنها الخضوع والانقياد ، يقال : دان له بمعنى ذل وخضع ، ويقال : دان الله بكذا أو على كذا بمعنى اتخذه ديناً يعبده به .

والمراد بالدين هنا جميع ما أرسل الله به رسول الله ﷺ من الأحكام والشرائع ، اعتقادية كانت أم قولية أم فعلية ، وإضافته إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته ، أي الدين الحق ، والحق مصدر حق يحق إذا ثبت ووجب . فالمراد به الثابت الواقع ، ويقابله الباطل الذي لا حقيقة له .

* (**اللام**) في قوله : ليظهره لام التعليل وهي متعلقة بأرسل ، وهو من الظهور بمعنى العلو والغلبة ، أي ليجعله عالياً على الأديان كلها بالحجة والبرهان .

* (**وأل**) في الدين للجنس ، فيدخل فيه كل دين باطل ، وهو ما عدا الإسلام .

* (**والشهيد**) فعيل ، وهو مبالغة من شهد ، وهو إما من الشهادة

بمعنى الإخبار والإعلام ، أو من الشهادة بمعنى الحضور والمعنى ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ مخبراً بصدق رسوله أو حاضراً مطلعاً لا يغيب عنه شيء .

والمعنى الإجمالي لما تقدم أن جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها .

ومما يحمد عليه سبحانه نعمه على عباده التي لا يحصي أحد من الخلق عدها . وأعظمها إرساله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين ، وبشرى للمتقين ، ليظهره على جميع الأديان بالحجة والبرهان ، والعز والتمكين والسلطان ، وكفى بالله شهيداً على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به .

وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة على ما جاء به هو الحق المبين .

* (**الشهادة**) الإخبار بالشيء عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته ، ولا تعتبر الشهادة إلا إذا كانت مصحوبة بالإقرار والإذعان وواطأ القلب عليها اللسان ، فإن الله قد كذب المنافقين في قولهم : ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ مع أنهم قالوا بألسنتهم .

* (**ولا إله إلا الله**) هي كلمة التوحيد التي اتفقت عليها كلمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بل هي خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم ، وما من رسول منهم إلا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه ، كما قال نبينا ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله

وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً ، وأشهد أن محمداً عبده

إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » .

ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفي والإثبات المقتضي للحصر وهو أبلغ من الإثبات المجرد ، كقولنا : الله واحد مثلاً ، فهي تدل بصدرها على نفي الإلهية عما سوى الله تعالى ، وتدل بعجزها على إثبات الإلـٰهية له وحده .

ولا بد فيها من إضمار خبر تقديره لا معبود بحق موجود إلا الله .

* وأما قوله : (**وحده لا شريك له**) : فهو تأكيد لما دلت عليه كلمة التوحيد .

* وقوله (**إقراراً به**) مصدر مؤكد لمعنى الفعل أشهد ، والمراد إقرار القلب واللسان .

* وقوله : (**توحيداً**) أي إخلاصاً لله عز وجل في العبادة فالمراد التوحيد الإرادي الطلبي المبني على توحيد المعرفة والإثبات .

وجعل الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة والعبودية ، مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد للإشارة إلى أنه لا بد من كل منهما ، فلا تغنى إحداهما عن الأخرى ، ولهذا قرن بينهما في الأذان وفي التشهد . وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ : يعني لا أذكر إلا ذكرت معي[1] .

---

(١) رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ . عن مجاهد قال : =

وإنما جمع له بين وصفي الرسالة والعبودية لأنهما أعلى ما يوصف به العبد ، والعبادة هي الحكمة التي خلق الله الخلق لأجلها كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ فكمال المخلوق في تحقيق تلك الغاية ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ولهذا ذكر الله نبيه بلقب العبد في أسمى أحواله وأشرف مقاماته كالإسراء به وقيامه بالدعوة إلى الله والإيحاء إليه والتحدي بالذي أنزل عليه ، ونبه بوصف العبودية أيضاً إلى الرد على أهل الغلو الذين قد يتجاوزون بالرسول ﷺ قدره ويرفعونه إلى مرتبة الألوهية . كما يفعل ضلال الصوفية قبحهم الله ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »[1] والمقصود أن هذه الشهادة تتضمن اعتراف العبد بكمال عبوديته ﷺ لربه وكمال رسالته ، وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كماله ، ولا تتم هذه الشهادة حتى يصدقه العبد في كل ما أخبر به ، ويطيعه في كل ما أمر به ، وينتهي عما نهى عنه .

*(**الصلاة**) في اللغة الدعاء ، قال تعالى ﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ وأصح ما قيل في صلاة الله على رسوله هو ما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال : صلاة الله على رسوله ثناؤه

= « حدثنا ابن عبد الله ، قال ثنا سفيان ، قال ثنا ابن أبي نجيح عن مجاهد : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال : لا أذكر إلا ذكرت معي أشهد أن لا إلٰه إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله » اهـ . إسماعيل الأنصاري .

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً ، أما بعد

عليه عند الملائكة .

والمشهور أن الصلاة من الملائكة الاستغفار كما في الحديث الصحيح « والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه ، يقولون : اللهم اغفر له اللهم ارحمه » ومن الآدميين التضرع والدعاء .

* (**وآل**) الشخص هم من يمتون إليه بصلة وثيقة من قرابة ونحوها وآله ﷺ يراد بهم أحياناً من حرمت عليهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو المطلب ويراد بهم أحياناً كل من تبعه على دينه ، وأصل (آل) أهل ، أبدلت الهاء همزة فتوالت همزتان فقلبت الثانية منهما ألفاً ويصغر على أهيل أو أويل ، ولا يستعمل إلا فيما شرف غالباً فلا يقال آل الإسكاف وآل الحجام ، والمراد (**بالصحب**) أصحابه ﷺ وهم كل من لقيه حال حياته مؤمناً ومات على ذلك .

* (**والسلام**) اسم مصدر من سلم تسليماً عليه ، بمعنى طلب له السلامة من كل مكروه ، وهو اسم من أسمائه تعالى ، ومعناه البراءة والخلاص من النقائص والعيوب أو الذي يسلم على عباده المؤمنين في الآخرة .

* (**ومزيداً**) صفة لتسليما وهو اسم مفعول من زاد المتعدي والتقدير مزيداً فيه .

* (**أما بعد**) كلمة يؤتى به للدلالة على الشروع في المقصود ، وكان النبي ﷺ يستعملها كثيراً في خطبه وكتبه . وتقديرها عند النحويين

فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة ، وهو الإيمان بالله

مهما يكن من شيء بعد .

* والإشارة بقوله (**هذا**) إلى ما تضمنه هذا المؤلف من العقائدالإيمانية التي أجملها في قوله (**وهو الإيمان بالله إلخ**) .

* (**والاعتقاد**) مصدر اعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة له ، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان لله به ، وأصله من عقد الحبل ، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم .

* (**والفرقة**) بكسر الفاء : الطائفة من الناس ، ووصفها بأنها(**الناجية المنصورة**) أخذاً من قوله عليه السلام « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » .

ومن قوله في الحديث الآخر « ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة ، وهي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

* وقوله (**أهل السنة والجماعة**) : بدل من الفرقة ، والمراد بالسنة الطريقة التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات . والجماعة في الأصل القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

هذه الأمور الستة هي أركان الإيمان فلا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعاً على الوجه الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة ، فمن جحد

شيئاً منها أو آمن به على غير هذا الوجه فقد كفر ، وقد ذكرت كلها في حديث جبريل المشهور حين جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله تعالى » .

* (**والملائكة**) : جمع ملك وأصله مألك من الألوكة وهي الرسالة ، وهم نوع من خلق الله عز وجل أسكنهم سماواته ، ووكلهم بشئون خلقه ووصفهم في كتابه بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم يسبحون بالليل والنهار لا يفترون . فيجب علينا الإيمان بما ورد في حقهم من صفات وأعمال في الكتاب والسنَّة ، والإمساك عما وراء ذلك ، فإن هذا من شئون الغيب التي لا نعلم منها إلا ما علمنا الله ورسوله .

* (**والكتب**) : جمع كتاب (وهو من الكتب بمعنى الجمع والضم) والمراد بها الكتب المنزلة من السماء على الرسل عليهم الصلاة والسلام . والمعلوم لنا منها صحف إبراهيم والتوراة التي أنزلت على موسى في الألواح والإنجيل الذي أنزل على عيسى ، والزبور الذي أنزل على داود ، والقرآن الكريم الذي هو آخرها نزولاً ، وهو المصدق لها والمهيمن عليها ، وما عداها يجب الإيمان به إجمالاً .

* (**والرسل**) جمع رسول (وقد تقدم أنه من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه) وعلينا أن نؤمن تفصيلاً بمن سمى الله في كتابه منهم وهم خمسة وعشرون ، ذكرهم الشاعر فى قوله :

في « تلك حجتنا » منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هــود شعــيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا.

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بهم إجمالاً على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم ، فإن ذلك مما اختص الله بعلمه ، قال تعالى : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ .

ويجب الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله عز وجل ، وبينوه بياناًلا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله ، وأنهم معصومون من الكذب والخيانة ، والكتمان والبلادة ، وأن أفضلهم أولو العزم ، والمشهور أنهم محمد وإبراهيم وموسى وعيس ونوح ، لأنهم ذكروا معاً في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ وقوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ .

* (**والبعث**) : في الأصل الإثارة والتحريك ، والمراد به في لسان الشرع إخراج الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة لفصل القضاء بينهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ويجب الإيمان بالبعث على الصفة التي بينها الله في كتابه ، وهو أنه جمع ما تحلل من أجزاء الأجساد التي كانت في الدنيا وإنشاؤها خلقاً جديداً وإعادة الحياة إليها ، ومنكر البعث الجثماني كالفلاسفة والنصارى كفار ، وأما من

........والإيمان بالقدر خيره وشره ، ومن الإيمان بالله ؛ الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف

أقر به ولكنه زعم أن الله يبعث الأرواح في أجسام غير الأجسام التي كانت في الدنيا فهو مبتدع وفاسق .

* وأما (**القدر**) فهو في الأصل مصدر ، تقول : قدرت الشيء بفتح الدال وتخفيفها ، أقدره بكسرها قدراً وقدراً إذا أحطت بمقداره والمراد به في لسان الشرع : أن الله عز وجل علم مقادير الأشياء وأزمانها أزلاً ، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما علمه منها ، وأنه كتبها في اللوح قبل إحداثها ، كما في الحديث : « أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب كل ما هو كائن » وقال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ .

* وقوله : (**ومن الإيمان بالله إلخ**) : هذا شروع في التفصيل بعد الإجمال ومن هنا للتبعيض والمعنى : ومن جملة إيمان أهل السنة والجماعة بالأصل الأول الذي هو أعظم الأصول وأساسها ، وهو الإيمان بالله أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه إلخ .

* وقوله : (**من غير تحريف**) : متعلق بالإيمان قبله يعني أنهم يؤمنون بالصفات الإلٰهية على هذا الوجه الخالي من كل هذه المعاني الباطلة إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل .

والتحريف في الأصل مأخوذ من قولهم : حرفت الشيء عن وجهه حرفاً ، من باب ضرب إذا أملته وغيرته والتشديد للمبالغة .

وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح ، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد .

* وأما (**التعطيل**) فهو مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وبئر معطلة ﴾ أي أهملها أهلها وتركوا وردها ، والمراد به هنا نفي الصفات الإلـٰهية ، وإنكار قيامها بذاته تعالى . فالفرق بين التحريف والتعطيل أن التعطيل نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها .

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق ، فإن التعطيل أعم مطلقاً من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس ، وبذلك يوجدان معاً فيمن أثبت المعنى الباطل ونفى المعنى الحق ، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة في الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض .

ومن الخطأ القول بأن هذا هو مذهب السلف كما نسب ذلك إليهم المتأخرون من الأشاعرة وغيرهم ، فإن السلف لم يكونوا يفوضون في علم المعنى ، ولا كانوا يقرأون كلاماً لا يفهمون معناه بل كانوا يفهمون معاني النصوص من الكتاب والسنة ، ويثبتونها لله عز وجل ،

ومن غير تكييف ولا تمثيل .

بل يؤمنون بأن الله سبحانه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ،

ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها كما قال مالك حين سئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش : « الاستواء معلوم والكيف مجهول » .

* وأما قوله : (**ومن غير تكييف ولا تمثيل**) : فالفرق بينهما أن التكييف أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا ، أو يسأل عنها بكيف .

وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين ، وليس المراد من قوله : من غير تكييف ، أنهم ينفون الكيف مطلقاً ، فإن كل شيء لا بد أن يكون على كيفية ما ، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه .

* قوله : (**ليس كمثله**) : هذه الآية المحكمة من كتاب الله عز وجل هي دستور أهل السنة والجماعة في باب الصفات فإن الله عز وجل قد جمع فيها بين النفي والإثبات ، فنفى عن نفسه المثل وأثبت لنفسه سمعاً وبصراً : فدل هذا على أن المذهب الحق ليس هو نفي الصفات مطلقاً ، كما هو شأن المعطلة ولا إثباتها مطلقاً ، كما هو شأن الممثلة ، بل إثباتها بلا تمثيل . وقد اختلف فى إعراب ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ على وجوه أصحها أن الكاف صلة زيدت للتأكيد كما في قول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير   خلق يوازيه في الفضائل

.... فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ،

---

* وقوله : (**فلا ينفون عنه إلخ**) :تفريع على ما قبله ، فإنهم إذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه فلا ينفون ولا يحرفون ، ولا يكيفون ولا يمثلون .

والمواضع جمع موضع والمراد بها المعاني التي يجب تنزيل الكلام عليها لأنها هي المتبادرة منه عند الإطلاق فهم لا يعدلون به عنها .

* **وأما قوله** : (**ولا يلحدون في أسماء الله وآياته**) : **فقد قال** العلامة ابن القيم رحمه الله : والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد في الدين : (المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه) اهـ .

فالإلحاد فيها إما أن يكون بجحدها وإنكارها بالكلية ، وإما بجحد معانيـها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الفاسدة ، وإما بجعلها أسماء لبعض المبتدعات كإلحاد أهل الاتحاد .

وخلاصة ما تقدم أن السلف رضي الله عنهم يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه وبكل ما أخبر به عنه رسوله ﷺ إيماناً سالماً من التحريف والتعطيل ، ومن التكييف والتمثيل ، ويجعلون الكلام في ذات الباري وصفاته باباً واحداً ، فإن الكلام في الصفات فرع الكلام في الذات يحتذى فيه حذوه . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا

ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لا سمي له

إثبات تكييف فكذلك إثبات الصفات ، وقد يعبرون عن ذلك بقولهم : (تمر كما جاءت بلا تأويل) ومن لم يفهم كلامهم ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى وهو باطل فإن المراد بالتأويل المنفي هنا هو حقيقة المعنى وكنهه وكيفيته .

قال الإمام أحمد رحمه الله : (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث) .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري : (من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل) .

* قوله : (**لأنه سبحانه لا سمي له إلخ**) : تعليل لقوله فيما تقدم إخباراً عن أهل السنة والجماعة : لا يكيفون ولا يمثلون .

* ومعنى : (**لا سمي له**) : أي لا نظير له يستحق مثل اسمه ، أو لا مسامي له يساميه ، وقد دل على نفيه قوله تعالى في سورة مريم : ﴿ هل تعلم له سمِيّاً ﴾ فإن الاستفهام هنا إنكاري معناه النفي .

وليس المراد من نفي السمي أن غيره لا يسمى بمثل أسمائه ، فإن هناك أسماء مشتركة بينه وبين خلقه ، ولكن المقصود أن هذه الأسماء إذا سمي الله بها كان معناها مختصاً به لا يشركه فيه غيره ، فإن الاشتراك إنما هو في مفهوم الاسم الكلي ، وهذا لا وجود له إلا في الذهن ، وأما في الخارج فلا يكون المعنى إلا جزئيّاً مختصاً ، وذلك بحسب ما يضاف

إليه ، فإن أضيف إلى الرب كان مختصّاً به لا يشاركه فيه العبد ، وإن أضيف إلى العبد كان مختصّاً به لا يشاركه فيه الرب .

* وأما (**الكفء**) : فهو المكافيء المساوي ، وقد دل على نفيه قوله تعالى : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

* وأما (**الند**) : فمعناه المساوي المناويء قال تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

* وأما قوله : (**ولا يقاس بخلقه**) فالمقصود به أنه لا يجوز استعمال شيء من الأقيسة التي تقتضي المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه في الشئون الإلـٰهية .

وذلك مثل قياس التمثيل الذي يعرفه علماء الأصول بأنه إلحاق فرع بأصل في حكم الجامع ، كإلحاق النبيذ بالخمر في الحرمة لاشتراكهما في علة الحكم وهي الإسكار .

فقياس التمثيل مبني على وجود مماثلة بين الفرع والأصل ، والله عز وجل لا يجوز أن يمثل بشيء من خلقه .

ومثل قياس الشمول المعروف عند المناطقة بأنه الاستدلال بكلي على جزئي بواسطة اندراج ذلك الجزئي مع غيره تحت هذا الكلي . فهذا القياس مبني على استواء الأفراد المندرجة تحت هذا الكلي ، ولذلك يحكم على كل منها بما حكم به عليه .

ومعلوم أنه لا مساواة بين الله عز وجل وبين شيء من خلقه وإنما

فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ،

يستعمل في حقه تعالى قياس الأولى ومضمونه : أن كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق ، فالخالق أولى به من المخلوق ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه .

وكذلك قاعدة الكمال التي تقول : إنه إذا قدر اثنان أحدهما موصوف بصفة كمال والآخر يمتنع عليه أن يتصف بتلك الصفة كان الأول أكمل من الثاني ، فيجب إثبات مثل تلك الصفة لله ما دام وجودها كمالاً وعدمها نقصاً .

* قوله : (**فإنه أعلم بنفسه وبغيره** – إلى قوله – **ثم رسله صادقون مصدقون**) تعليل لصحة مذهب السلف في الإيمان بجميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة . فإنه إذا كان الله عز وجل أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولاً وأحسن حديثاً ، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين في كل ما يخبرون به عنه ، معصومين من الكذب عليه والإخبار عنه بما يخالف الواقع . وجب التعويل إذاً في باب الصفات نفياً وإثباتاً على ما قاله الله وقاله رسوله الذي هو أعلم خلقه به ، وأن لا يترك ذلك إلى قول من يفترون على الله الكذب ويقولون عليه مالا يعلمون .

وبيان ذلك أن الكلام إنما تقصر دلالته على المعاني المرادة منه لأحد ثلاثة أسباب : إما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به ، وإما لعدم

فصاحته وقدرته على البيان ، وإما لكذبه وغشه وتدليسه ، ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه ، فكلام الله وكلام رسوله في غاية الوضوح والبيان ، كما أنه المثل الأعلى في الصدق والمطابقة للواقع لصدوره عن كمال العلم بالنسب الخارجية وهو كذلك صادر عن تمام النصح والشفقة ، والحرص على هداية الخلق وإرشادهم .

فقد اجتمعت له الأمور الثلاثة التي هي عناصر الدلالة والإفهام على أكمل وجه . فالرسول ﷺ أعلم الخلق بما يريد إخبارهم به ، وهو أقدرهم على بيان ذلك ، والإفصاح عنه ، وهو أحرصهم على هداية الخلق وأشدهم إرادة لذلك ، فلا يمكن أن يقع في كلامه شيء من النقص والقصور بخلاف كلام غيره فإنه لا يخلو من نقص في أحد هذه الأمور أو جميعها ، فلا يصح أن يعدل بكلامه كلام غيره فضلاً عن أن يعدل عنه إلى كلام غيره ، فإن هذا هو غاية الضلال ومنتهى الخذلان .

* قوله : (**ولهذا قال إلخ**) : تعليل لما تقدم من كون كلام الله وكلام رسوله أكمل صدقاً وأتم بياناً ونصحاً ؛ وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد .

* (**وسبحان**) : اسم مصدر من التسبيح ، الذي هو التنزيه والإبعاد عن السوء ، وأصله من السبح الذي هو السرعة والانطلاق والإبعاد ، ومنه فرس سبوح إذا كانت شديدة العدو .

وإضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى صفته ، وهو بدل من الرب قبله ، فهو سبحانه ينزه نفسه عما ينسبه إليه المشركون من

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ، وهو قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات ،

اتخاذ الصاحبة والولد وعن كل نقص وعيب .

ثم يسلم على رسله عليهم الصلاة والسلام بعد ذلك للإشارة إلى أنه كما يجب تنزيه الله عز وجل وإبعاده عن كل شائبة نقص وعيب ، فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم من كل عيب كذلك فلا يكذبون على الله ولا يشركون به ولا يغشون أممهم ولا يقولون على الله إلا الحق .

* قوله : (**والحمد لله رب العالمين**) : ثناء منه سبحانه على نفسه بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال وحميد الفعال ، وقد تقدم الكلام على معنى الحمد فأغنى عن إعادته .

لما بين فيما سبق أن أهل السنة والجماعة يصفون الله عز وجل بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول ، ولم يكن ذلك كله إثباتاً ولا كله نفياً نبه على ذلك بقوله :(**وهو سبحانه قد جمع إلخ**) .

واعلم أن كلاً من النفي والإثبات في الأسماء والصفات مجمل ومفصل .

أما الإجمال في النفي : فهو أن ينفي عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مثل قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ .

وأما التفصيل في النفي : فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه ، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والند والضد والجهل والعجز والضلال والنسيان والسنة والنوم والعبث والباطل إلخ .

ولكن ليس في الكتاب ولا في السنة نفي محض ، فإنّ النفي الصرف لا مدح فيه ، وإنما يراد بكل نفي فيهما إثبات ما يضاده من الكمال ، فنفي الشريك والند لإثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال ، ونفي العجز لإثبات كمال قدرته ، ونفي الجهل لإثبات سعة علمه وإحاطته ، ونفي الظلم لإثبات كمال عدله ، ونفي العبث لإثبات كمال حكمته ، ونفي السنة والنوم والموت لإثبات كمال حياته وقيوميته وهكذا ، ولهذا كان النفي في الكتاب والسنة إنما يأتي مجملاً في أكثر أحواله بخلاف الإثبات فإن التفصيل فيه أكثر من الإجمال لأنه مقصود لذاته .

وأما الإجمال في الإثبات : فمثل إثبات الكمال المطلق ، والحمد المطلق والمجد المطلق ونحو ذلك ، كما يشير إليه مثل قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ .

وأما التفصيل في الإثبات : فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت في الكتاب والسنة ، وهو من الكثير بحيث لا يمكن لأحد أن يحصيه فإن منها ما اختص الله عز وجل بعلمه كما قال عليه الصلاة والسلام : « سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » . وفي حديث دعاء الكرب : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك

.... فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه من سورة الإخلاص التي تعدل ثلث

أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداًمن خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك » .

* قوله : (**فلا عدول إلخ**) : هذا مترتب على ما تقدم من بيان أن ما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذي يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه ، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم ، يعني الطريق السوي القاصد الذي لا عوج فيه ولا انحراف .

والصراط المستقيم لا يكون إلا واحداً ؛ من زاغ عنه أو انحرف وقع في طريق من طرق الضلال والجور كما قال تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ والصراط المستقيم هو طريق الأمة الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط ولهذا أمرنا الله عز وجل وعلمنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط المستقيم في كل ركعة من الصلاة ، أي يلهمنا ويوفقنا لسلوكه واتباعه فإنه صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ .

* قوله : (**وقد دخل إلخ**) : شروع في إيراد النصوص من الكتاب والسنة المتضمنة لما يجب الإيمان به من الأسماء والصفات في النفي والإثبات .

القرآن ، حيث يقول : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم

وابتدأ بتلك السورة العظيمة لأنها اشتملت من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيرها . ولهذا سميت سورة الإخلاص لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية .

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه فى سبب نزولها أن المشركين قالوا : يا محمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ إلخ السورة .

وقد ثبت في الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن . وقد اختلف العلماء في تأويل ذلك على أقوال أقربها [1] : ما نقله شيخ الإسلام عن أبي العباس وحاصله أن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة مقاصد أساسية :

● **أولها** : الأوامر والنواهي المتضمنة للأحكام والشرائع العملية التي هي موضوع علم الفقه والأخلاق .

● **ثانيها** : القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم ، وأنواع الهلاك التي حاقت بالمكذبين لهم ، وأحوال الوعد والوعيد وتفاصيل الثواب والعقاب .

(١) نص عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية التي ذكر المؤلف أن هذا حاصلها : (قد قيل فيه – أي في توجيه كون سورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن – وجوه أحسنها والله أعلم الجواب منقول عن الإمام أبي العباس بن سريج عن أبي الوليد القرشي أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبي ﷺ : « ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن » . فقال : معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام ثلث منها الأحكام وثلث منها وعد ووعيد وثلث منها الأسماء والصفات ، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات » اهـ . إسماعيل الأنصاري .

● **ثالثها** : علم التوحيد وما يجب على العباد من معرفة الله بأسمائه وصفاته وهذا هو أشرف الثلاثة .

ولما كانت سورة الإخلاص قد تضمنت أصول هذ العلم ، واشتملت عليه إجمالاً صح أن يقال : إنها تعدل ثلث القرآن

وأما كيف اشتملت هذه السورة على علوم التوحيد كلها وتضمنت الأصول التي هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي فنقول :

* إن قوله تعالى : (**الله أحد**) : دلت على نفي الشريك من كل وجه في الذات وفي الصفات وفي الأفعال ، كما دلت على تفرده سبحانه بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء ، ولهذا لا يطلق لفظ أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل ، وهو أبلغ من واحد .

* وقوله : (**الله الصمد**) : قد فسرها ابن عباس رضي الله عنه بقوله (السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمه ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله عز وجل هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفؤ وليس كمثله شيء)[1].

(١) تمام قول ابن عباس عند ابن كثير : (سبحان الله الواحد القهار) وليس فيما ذكره ابن كثير قوله : (الغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار قد كمل في جبروته) وعند =

وقد فسر الصمد أيضاً بأنه الذي لا جوف له وبأنه الذي تصمد إليه الخليقة كلها وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها .

فإثبات الأحدية لله تتضمن نفي المشاركة والمماثلة ، وإثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وهذا هو توحيد الإثبات .

* وأما النوع الثاني وهو توحيد التنزيه فيؤخذ من قوله تعالى : ﴿ لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد ﴾ كما يؤخذ إجمالاً من قوله : ﴿ الله أحد ﴾ .

أي لم يتفرع عنه شيء و لم يتفرع هو عن شيء ، وليس له مكافيء ولا مماثل ولا نظير .

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم غناه وصمديته وأحديته ، ثم نفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والنظير فحق لسورة تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن .

روى مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله :

= ابن كثير لفظ (قد) قبل لفظ (كمل) في جميع المواضع التي ورد فيها لفظ (كمل) في قول ابن عباس . إسماعيل الأنصاري .

.... وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه حيث يقول : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه

« أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ثم قال أبي : آية الكرسي فوضع النبي يده على كتفه وقال : « ليهنك هذا العلم أبا المنذر » – وفى رواية عند أحمد : « والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » .

ولا غرو فقد اشتملت هذه الآية العظيمة من أسماء الرب وصفاته على مالم تشتمل عليه آية أخرى .

فقد أخبر الله فيها عن نفسه بأنه المتوحد في إلٰهيته الذي لا تنبغي العبادة بجميع أنواعها وسائر صورها إلا له .

ثم أردف قضية التوحيد بما يشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة ، فذكر أنه الحي الذي له كمال الحياة لأن حياته من لوازم ذاته فهي أزلية أبدية ، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال الذاتية له من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والإرادة والمشيئة وغيرها ، إذا لا يتخلف شيء منها إلا لنقص في الحياة . فالكمال في الحياة يتبعه الكمال في سائر الصفات اللازمة للحي . ثم قرن ذلك باسمه القيوم ومعناه الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه غنى مطلقاً لا تشوبه شائبة حاجة أصلاً لأنه غنى ذاتي ، وبه قامت الموجودات كلها ، فهي فقيرة إليه فقراً ذاتياً بحيث لا تستغني عنه لحظة ، فهو الذي ابتدأ إيجادها على هذا النحو من الإحكام والإتقان وهو الذي يدبر أمورها ويمدها بكل ما تحتاج إليه في بقائها . وفي بلوغ الكمال الذي قدره لها ، فهذا الاسم

سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء

متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية . كما أن اسمه الحي متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية . ولهذا ورد أن الحي القيوم هما اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب .

* ثم أعقب ذلك بما يدل على كمال حياته وقيوميته فقال : (**لا تأخذه**) أي لا تغلبه (**سنة**) أي نعاس ولا نوم ، فإن ذلك ينافي القيومية ، إذ النوم أخو الموت . ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون ، ثم ذكر عموم ملكه لجميع العوالم العلوية والسفلية ، وأنها جميعاً تحت قهره وسلطانه فقال : (**له ما في السموات وما في الأرض**) .

ثم أردف ذلك بما يدل على تمام ملكه ، وهو أن الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

وقد تضمن هذا النفي والاستثناء أمرين ؛ أحدهما : إثبات الشفاعة الصحيحة ، وهي أنها تقع بإذنه سبحانه لمن يرضى قوله وعمله . والثاني : إبطال الشفاعة الشركية التي كان يعتقدها المشركون لأصنامهم وهي أنها تشفع لهم بغير إذن الله ورضاه .

ثم ذكر سعة علمه وإحاطته وأنه لا يخفى عليه شيء من الأمور المستقبلة والماضية ، وأما الخلق فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه ، قيل : يعني من معلومه ، وقيل : من علم أسمائه وصفاته إلا بما شاء الله سبحانه أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله أو بغير ذلك من طرق البحث والنظر

والاستنتاج والتجربة .

ثم ذكر ما يدل على عظيم ملكه وواسع سلطانه ، فأخبر أن كرسيه قد وسع السموات والأرض جميعاً . والصحيح في الكرسي أنه غير العرش وأنه موضع القدمين ، وأنه في العرش كحلقة ملقاة في فلاة .

وأما ما أورده ابن كثير عن ابن عباس من تفسير الكرسي بالعلم فإنه لا يصح[1] ويفضي إلى التكرار في الآية .

* ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن عظيم قدرته وكمال قوته بقوله : (**ولا يؤوده حفظهما**) أي السموات والأرض وما فيهما . وفسر الشيخ رحمه الله يؤوده ب (يثقله) ويكرثه من آده الأمر إذا ثقل عليه ، ثم وصف نفسه سبحانه في ختام تلك الآية الكريمة ، بهذين الوصفين الجليلين ، وهما (العلي والعظيم) .

* (**فالعلي**) : هو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه ، علو الذات : وكونه فوق جميع المخلوقات مستوياً على عرشه .

وعلو القدر : إذ كان له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها .

(١) لأنه من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وقد قال ابن منده في جعفر هذا ليس بالقوي في سعيد بن جبير ، وقال في روايته لهذا الأثر لم يتابع عليها أفاد ذلك الحافظ الذهبي من ترجمة جعفر المذكور من (الميزان) اهـ . إسماعيل الأنصاري .

العظيم ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن –

وعلو القهر : إذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

* وأما (**العظيم**) : فمعناه الموصوف بالعظمة الذي لا شيء أعظم منه ، ولا أجل ولا أكبر ، وله سبحانه التعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه .

* قوله : (**هو الأول**) : الجملة هنا جاءت معرفة الطرفين ، فهي تفيد اختصاصه سبحانه بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها على ما يليق بجلاله وعظمته ، فلا يثبت لغيره من ذلك شيء .

وقد اضطربت عبارات المتكلمين في تفسير هذه الأسماء ؛ ولا داعي لهذه التفسيرات بعد ما ورد تفسيرها عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه : « اللهم رب السموات السبع ورب الأرض رب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ؛ أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين واغنني من الفقر » .

فهذا تفسير واضح جامع يدل على كمال عظمته سبحانه وأنه محيط بالأشياء من كل وجه (فالأول والآخر) بيان لإحاطته الزمانية ، (والظاهر والباطن) بيان لإحاطته المكانية ، كما أن اسمه الظاهر يدل على

وهو بكل شيء عليم ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ ،

أنه العالي فوق جميع خلقه ، فلا شيء منها فوقه .

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن فاسمه (الأول) دال على قدمه وأزليته ، واسمه (الآخر) دال على بقائه وأبديته ؛ واسمه (الظاهر) دال على علوه وعظمته ؛ واسمه (الباطن) دال على قربه ومعيته ؛ ثم ختمت الآية بما يفيد إحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ؛ ومن العالم العلوي والسفلي ؛ ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . فالآية كلها شأن إحاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه ؛ وأن العوالم كلها في قبضة يده كخردلة في يد العبد لا يفوته منها شيء ؛ وإنما أتى بين هذه الصفات بالواو مع أنها جارية على موصوف واحد لزيادة التقرير والتأكيد ، لأن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد يسبق إلى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعاً ؛ فإن الأولية تنافي الآخرية في الظاهر ؛ وكذلك الظاهرية والباطنية فاندفع توهم الإنكار بذلك التأكيد .

* قوله : (**وتوكل إلخ**) : هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف لإثبات بعض الأسماء والصفات . فالآية الأولى فيها إثبات اسمه (الحي) كما تضمنت سلب الموت الذي هو ضد الحياة عنه ؛ وقد قدمنا أنه سبحانه

.......................وقوله : ﴿ وهو العليم الحكيم – وهو العليم الخبير – يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ؛ وما ينزل من

حي بحياة هي صفة له لازمة لذاته فلا يعرض لها موت ولا زوال أصلاً ؛ وأن حياته أكمل حياة وأتمها فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . وأما الآيات الباقية ففيها إثبات صفة العلم وما اشتق منها ككونه عليماً ويعلم وأحاط بكل شيء علماً إلخ .

والعلم صفة لله عز وجل بها يدرك جميع المعلومات على ما هي به فلا يخفى عليه منها شيء كما قدمنا .

* وفيها إثبات اسمه (الحكيم) ؛ وهو مأخوذ من الحكمة ؛ ومعناه الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب ؛ فلا يقع منه عبث ولا باطل ، بل كل ما يخلقه أو يأمر به فهو تابع لحكمته .

وقيل : هو من فعيل بمعنى مفعل ، ومعناه المحكم للأشياء من الإحكام ؛ وهو الإتقان فلا يقع في خلقه تفاوت ولا فطور ، ولا يقع في تدبيره خلل أو اضطراب .

* وفيها كذلك إثبات اسمه (الخبير) ؛ وهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء على وجه التفصيل ووصول علمه إلى كل ما خفي ودق من الحسيات والمعنويات .

* وقد ذكر سبحانه في هذه الآيات بعض ما يتعلق به علمه الدلالة على شموله وإحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه ، فذكر أنه يعلم ما يلج أي يدخل في الأرض من حب وبذر ومياه وحشرات ومعادن ، وما يخرج

السماء وما يعرج فيها - وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ ، وقوله : ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ ، وقوله :

منها من زرع وأشجار وعيون جارية ومعادن نافعة كذلك وما ينزل من السماء ، من ثلوج وأمطار وصواعق وملائكة ، وما يعرج أي يصعد فيها كذلك من ملائكة وأعمال وطير صواف إلى غير ذلك مما يعلمه جل شأنه ، وذكر فيها أيضاً أن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ومفاتح الغيب قيل : خزائنه ، وقيل : طرقه وأسبابه التي يتوصل بها إليه ، جمع مفتح بكسر الميم أو مفتاح بحذف ياء مفاعيل .

وقد فسرها النبي ﷺ بقوله : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله » ثم تلا قوله تعالى ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ .

* وقد دلت الآيتان الأخيرتان على أنه سبحانه عالم بعلم هو صفة له قائم بذاته خلافاً للمعتزلة الذين نفوا صفاته ، فمنهم من قال : إنه عالم بذاته وقادر بذاته إلخ ؛ ومنهم من فسر أسماءه بمعان سلبية فقال : عليم معناه لا يجهل ؛ وقادر معناه لا يعجز إلخ .

وهذه الآيات حجة عليهم فقد أخبر فيها سبحانه عن إحاطة علمه بحمل كل أنثى ووضعها من حيث المتى والكيف ؛ كما أخبر عن عموم

﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قديرٌ وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ ،

قدرته وتعلقها بكل ممكن وعن إحاطة علمه بجميع الأشياء ؛ وما أحسن ما قاله الإمام عبد العزيز المكي في كتابه الحيدة لبشر المريسي المعتزلي وهو يناظره في مسألة العلم : (إن الله عز وجل لم يمدح في كتابه ملكاً ولا نبياًمرسلاً ولا مؤمناً تقيّاً بنفي الجهل عنه ليدل على إثبات العلم له ؛ وإنما مدحهم بإثبات العلم لهم فنفى بذلك الجهل عنهم ؛ فمن أثبت العلم نفى الجهل ، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم) .

والدليل العقلي على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل لأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم العلم بالمراد ولهذا قال سبحانه : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير علم .

ولأن من المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال ؛ فلو لم يكن الله عالماً لكان في المخلوقات من هو أكمل منه .

وكل علم في المخلوق إنما استفاده من خالقه ؛ وواهب الكمال أحق به ؛ وفاقد الشيء لا يعطيه . وأنكر الفلاسفة علمه تعالى بالجزئيات وقالوا : إنه يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت ، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئاً ؛ فإن كل ما في الخارج هو جزئي . كما أنكر الغلاة من القدرية علمه تعالى بأفعال العباد حتى يعملوها ، توهماً منهم أن علمه بها يفضي

..........وقوله : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

وقوله : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ،

إلى الجبر ؛ وقولهم معلوم البطلان بالضرورة فى جميع الأديان .

* قوله : (**إن الله إلخ**) : تضمنت إثبات اسمه (**الرزاق**) وهو مبالغة من الرزق ومعناه الذي يرزق عباده رزقاً بعد رزق في إكثار وسعة ؛ وكل ما وصل منه سبحانه من نفع إلى عباده فهو رزق مباحاً كان أو غير مباح على معنى أنه قد جعله لهم قوتاً ومعاشاً ؛ قال تعالى : ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد ﴾ وقال : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ إلا أن الشيء إذا كان مأذوناً في تناوله فهو حلال حكماً وإلا كان حراماً ، وجميع ذلك رزق ، وتعريف الجملة الإسمية والإتيان فيها بضمير الفصل لإفادة اختصاصه سبحانه بإيصال الرزق إلى عباده .

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (أقرأني رسول الله ﷺ إني أنا الرزاق ذو القوة المتين) .

* وأما قوله : (**ذو القوة**) :أي صاحب القوة فهو بمعنى اسمه القوي إلا أنه أبلغ في المعنى ، فهو يدل على أن قوته سبحانه لا تتناقص فيهم أو يفتر .

* وأما : (**المتين**) : فهو اسم له من المتانة ، وقد فسره ابن عباس « بالشديد » .

* قوله : (**ليس كمثله شيء إلخ**) : دل إثبات صفتي السمع والبصر له سبحانه بعد نفي المثل عنه على أنه ليس المراد من نفي المثل نفي

الصفات كما يدعي ذلك المعطلة ويحتجون به باطلاً ، بل المراد إثبات الصفات مع نفي مماثلتها لصفات المخلوقين .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله (قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون ، ولم يقصد به نفي صفات كماله وعلوه على خلقه وتكلمه بكتبه وتكليمه لرسله ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر في الصحو) . اهـ .

ومعنى (السميع) المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت ، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لا يماثل أسماع خلقه .

ومعنى (البصير) المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار وهو من فعيل بمعنى مُفْعل ، وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذي يليق به .

روى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿ إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ فوضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه .

ومعنى الحديث : أنه سبحانه يسمع بسمع ويرى بعين فهو حجة على بعض الأشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات وبصره علمه بالمبصرات ، وهو تفسير خاطيء ، فإن الأعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها ، والأصم يعلم بوجود الأصوات ولا يسمعها .

وقوله : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ ،

---

* قوله : (**ولولا إذ دخلت ، إلخ**) : هذه الآيات دلت على إثبات صفتي الإرادة والمشيئة ، والنصوص في ذلك لا تحصى كثرة .

والأشاعرة يثبتون إرادة واحدة قديمة تعلقت في الأزل بكل المرادات فيلزمهم تخلف المراد عن الإرادة ، وأما المعتزلة فعلى مذهبهم في نفي الصفات لا يثبتون في صفة الإرادة ، ويقولون إنه يريد بإرادة حادثة لا في محل ، فيلزمهم قيام الصفة بنفسها وهو من أبطل الباطل .

وأما أهل الحق فيقولون : إن الإرادة على نوعين :

١) إرادة كونية ترادفها المشيئة ، وهما تتعلقان بكل ما يشاء الله فعله وإحداثه ، فهو سبحانه إذا أراد شيئاً وشاءه كان عقب إرادته له كما قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ .

وفي الحديث الصحيح : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » .

٢) وإرادة شرعية تتعلق بما يأمر الله به عباده مما يحبه ويرضاه وهي المذكورة في مثل قوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ولا تلازم بين الإرادتين بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الأخرى فبينهما عموم وخصوص من وجه . فالإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصي ، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق .

والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعاً كان

وقوله : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ .

وقوله : ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد ﴾ ، وقوله : ﴿ فمن يرد الله أنه يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضلَّه

أو غير واقع ، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به .

والحاصل أن الإرادتين قد تجتمعان معاً في مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع ، وتنفرد الكونية في مثل كفر الكافر ، ومعصية العاصي ، وتنفرد الشرعية في مثل إيمان الكافر وطاعة العاصي .

* وقوله تعالى : (**ولولا إذ دخلت جنتك**) الآية : هذا من قوله الله حكاية عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين يعظه به أن يشكر نعمة الله عليه ويردها إلى مشيئة الله ويبرأ من حوله وقوته فإنه لا قوة إلا بالله .

* وقوله : (**ولو شاء الله ما اقتتلوا**) الآية : إخبار عن ما وقع بين أتباع الرسل من بعدهم من التنازع والتعادي بغياً بينهم وحسداً ، وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله عز وجل ، ولو شاء عدم حصوله ما حصل ولكنه شاء فوقع .

* وقوله : (**فمن يرد الله أن يهديه إلخ**) : الآية تدل على أن كلا من الهداية والضلال بخلق الله عز وجل ، فمن يرد هدايته ، أي إلهامه

يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ ، وقوله :

وتوفيقه يشرح صدره للإسلام بأن يقذف في قلبه نوراً فيتسع له وينبسط كما ورد في الحديث – ومن يرد إضلاله وخذلانه يجعل صدره في غاية الضيق والحرج ، فلا ينفذ إليه نور الإيمان . وشبه ذلك بمن يصعد في السماء .

تضمنت هذه الآيات إثبات أفعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة ومحبة الله عز وجل لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به ، وهي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلق بمشيئة فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة ، وينفي الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة بدعوى أنها توهم نقصاً ، إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه ، فأما الأشاعرة فيرجعونها إلى صفة الإرادة ، فيقولون إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته .

وكذلك يقولون في صفات الرضى والغضب والكراهية والسخط كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب .

وأما المعتزلة فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به ، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء بناء على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي .

وأما أهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به فلا تقتضي عندهم نقصاً ولا تشبيهاً .

كما يثبتون لازم تلك المحبة وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته ، وليت شعري بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عليه السلام في حديث أبي هريرة : « إن الله عز وجل إذا أحب عبداً قال لجبريل عليه السلام إني أحب فلاناً فأحبه ، قال فيقول جبريل عليه السلام لأهل السماء : إن ربكم عز وجل يحب فلاناً فأحبوه ، قال فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغضه فمثل ذلك » رواه الشيخان .

* وقوله تعالى في الآية الأولى : (**وأحسنوا**) : أمر بالإحسان العام في كل شيء لا سيما في النفقة المأمور بها قبل ذلك ؛ والإحسان فيها يكون بالبذل وعدم الإمساك ، أو بالتوسط بين التقتير والتبذير ؛ وهو القوام الذي أمر الله به في سورة الفرقان .

روى مسلم في صحيحه عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء ؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ؛ وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » .

* وأما قوله : (**إن الله يحب المحسنين**) : فهو تعليل للأمر بالإحسان فإنهم إذا علموا أن الإحسان موجب لمحبته سارعوا إلى امتثال الأمر به .

* وأما قوله في الآية الثانية : ﴿ **وأقسطوا** ﴾ : فهو أمر بالإقساط وهو العدل في الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين ؛ وهو من قسط إذا جار ، فالهمزة فيه للسلب ، ومن أسمائه تعالى المقسط ، وفى

المقسطين – فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين – إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ، وقوله :

الآية الحث على العدل وفضله ، وأنه سبب لمحبة الله عز وجل .

* وأما قوله تعالى : (**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم**) : فمعناه إذا كان بينكم وبين أحد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم على عهدهم مدة استقامتهم لكم ، فما هنا مصدرية ظرفية ثم علل ذلك الأمر بقوله : (**إن الله يحب المتقين**) أي يحب الذين يتقون الله في كل شيء ومنه عدم نقض العهود .

* وأما قوله : (**إن الله يحب التوابين إلخ**) : فهو إخبار من الله سبحانه وتعالى عن محبته لهذين الصنفين من عباده .

● أما الأول : فهم (التوابون) ، أي الذين يكثرون التوبة والرجوع إلى الله عز وجل بالاستغفار مما ألموا به على ما تقتضيه صيغة المبالغة ، فهم بكثرة التوبة قد تطهروا من الأقذار والنجاسات المعنوية التي هي الذنوب والمعاصي .

● وأما الثاني : فهم (المتطهرون) الذين يبالغون في التطهر ، وهو التنظيف بالوضوء أو بالغسل من الأحداث والنجاسات الحسية .

وقيل المراد بالمتطهرين هنا الذين يتنزهون من إتيان النساء في زمن الحيض أو في أدبارهن ، والحمل على العموم أولى .

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ ، وقوله : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ ، وقوله : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ ، وقوله : ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ ،

---

* وأما قوله تعالى : (**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله**) فقد روي عن الحسن في سبب نزولها أن قوماً ادعوا أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم ، وفي هذه الآية قد شرط الله لمحبته اتباع نبيه ﷺ ، فلا ينال تلك المحبة إلا من أحسن الاتباع والاستمساك بهديه عليه السلام .

* قوله : (**وهو الغفور إلخ**) : تضمنت الآية إثبات اسمين من الأسماء الحسنى وهما : « الغفور والودود » .

● أما الأول : فهو مبالغة الغفر ومعناه الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده والتجاوز عن مؤاخذتهم .

وأصل الغفر الستر ، ومنه يقال : الصبغ أغفر للوسخ ، ومنه المغفر لسترة الرأس .

● وأما الثاني : فهو من الود الذي هو خالص الحب وألطفه ، وهو إما من فعول بمعنى فاعل ، فيكون معناه الكثير الود لأهل طاعته والمتقرب إليهم بنصر له ومعونته .

وأما من فعول بمعنى مفعول فيكون معناه المودود لكثرة إحسانه المستحق لأن يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه .

....وقوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم - ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً - ورحمتي وسعت كل شيء - كتب ربكم على

---

* وأما قوله : (**بسم الله الرحمن الرحيم**) وما بعدها من الآيات فقد تضمنت إثبات أسمائه الرحمن الرحيم وإثبات صفتي الرحمة والعلم .

وقد تقدم في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم الكلام على هذين الاسمين وبيان الفرق بينهما .

وأن أولهما : دال على صفة الذات والثاني : دال على صفة الفعل ، وقد أنكر الأشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى أنها في المخلوق ضعف وخور وتألم للمرحوم ، وهذا من أقبح الجهل فإن الرحمة إنما تكون من الأقوياء للضعفاء ، فلا تستلزم ضعفاً ولا خوراً بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة . فالإنسان القوى يرحم ولده الصغير وأبويه الكبيرين ومن هو أضعف منه ، وأين الضعف والخور وهما من أذم الصفات من الرحمة التي وصف الله نفسه بها وأثنى على أوليائه المتصفين بها وأمرهم أن يتواصوا بها .

* وقوله : (**ربنا وسعت إلخ**) : من كلام الله عز وجل حكاية عن حملة العرش والذين حوله ، يتوسلون إلى الله عز وجل بربوبيته وسعة علمه ورحمته في دعائهم للمؤمنين ، وهو من أحسن التوسلات التي يرجى معها الإجابة .

ونصب قوله : (**رحمة وعلماً**) على التمييز المحول عن الفاعل ، والتقدير وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، فرحمته سبحانه وسعت في

نفسه الرحمة – وهو الغفور الرحيم – فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ ، قوله : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه – ومن

الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين كما قال تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ الآية .

* وقوله تعالى : (**كتب ربكم على نفسه الرحمة**) أي أوجبها على نفسه تفضلاً وإحساناً ولم يوجبها عليه أحد .

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين : « أن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي أو تسبق غضبي » .

* وأما قوله : (**فالله خير حافظاً**) : فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة . ومعناه الذي يحفظ عباده بالحفظ العام فييسر لهم أقواتهم ويقيهم أسباب الهلاك والعطب وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم ويحصي أقوالهم ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص فيعصمهم عن مواقعة الذنوب ويحرسهم من مكايد الشيطان وعن كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم ، وانتصب (حافظاً) تمييزاً لخير الذي هو أفعل تفضيل .

* قوله : (**رضي الله عنهم إلخ**) : تضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله والغضب ، واللعن والكره ، والسخط والمقت والأسف .

وهي عند أهل الحق صفات حقيقية لله عز وجل على ما يليق

به ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك ، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق ، فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله عز وجل بها يلزمه أن تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هي في المخلوق ، وهذا الظن الذي ظنوه في ربهم أرداهم فأوقعهم في حمأة النفي والتعطيل ، والأشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة كما علمت سابقاً ، فالرضى عندهم إرادة الثواب والغضب والسخط إلخ إرادة العقاب .

وأما المعتزلة فيرجعونها إلى نفس الثواب والعقاب .

* وقوله سبحانه : (**رضي الله عنهم ورضوا عنه**) : إخبار عما يكون بينه وبين أوليائه من تبادل الرضا والمحبة أما رضاه عنهم فهو أعظم وأجل من كل ما أعطوا من النعيم كما قال سبحانه : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ وأما رضاهم عنه فهو رضى كل منهم بمنزلته مهما كانت وسروره بها حتّى يظن أنه لم يؤت أحد خيراً مما أوتي ، وذلك في الجنة .

* وأما قوله : (**ومن يقتل مؤمناً متعمداً**) الآية ، فقد احترز بقوله : مؤمنا عن قتل الكافر ، وبقوله : متعمداً، أي قاصداً لذلك (بأن يقصد من يعلمه آدمياً معصوماً فيقتله بما يغلب على الظن موته به) عن القتل الخطأ .

* وقوله : (**خالداً فيها**) : أي مقيماً على جهة التأبيد ، وقيل الخلود المكث الطويل واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعي عليه بها .

ولعنه ﴾ ، وقوله : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ﴾ ، ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ ، وقوله : ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾ ، وقوله : ﴿ كبر مقتاً عند الله أن

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث إنها تدل على أن القاتل عمداً لا توبة له وأنه مخلد في النار ، وهذا معارض لقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقد أجابوا عن ذلك بعدة أجوبة منها :

١ – أن هذا الجزء لمن كان مستحلاً لقتل المؤمن عمداً .

٢ – أن هذا هو جزاؤه الذي يستحقه لو جوزي مع إمكان أن لا يجازى بأن يتوب أو يعمل صالحاً يرجح بعلمه السيء .

٣ – أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر .

٤ – أن المراد بالخلود المكث الطويل كما قدمنا .

وقد ذهب ابن عباس وجماعة إلى أن القاتل عمداً لا توبة له حتى قال ابن عباس : إن هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء ، والصحيح أن على القاتل حقوقاً ثلاثة : حقّاً لله ، وحقّاً للورثة ، وحقّاً للقتيل ، فحق الله يسقط بالتوبة ، وحق الورثة يسقط بالاستيفاء في الدنيا أو العفو ، وأما حق القتيل فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة ويأتي رأسه في يده ويقول : يا رب سل هذا فيم قتلني ؟ .

* وأما قوله : (**فلما آسفونا إلخ**) : فالأسف يستعمل بمعنى شدة الحزن وبمعنى شدة الغضب والسخط وهو المراد في الآية والانتقام المجازاة بالعقوبة مأخوذاً من النقمة وهي شدة الكراهة والسخط .

تقولوا ما لا تفعلون ﴾ ، وقوله : ﴿ هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر ﴾ ، ﴿ هل ينظرون

---

* قوله : (**هل ينظرون إلخ**) : في هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه وهما صفتا الإتيان والمجيء والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل .

ولعل من المناسب أن ننقل إلى القاريء هنا ما كتبه حامل لواء التهجم والتعطيل في هذا العصر وهو المدعو بزاهد الكوثري .

قال في حاشيته على كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ما نصه :

(قال الزمخشري ما معناه : إن الله يأتي بعذاب في الغمام الذي ينتظر منه الرحمة ، فيكون مجيء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول) وقال إمام الحرمين في معنى الباء كما سبق ، وقال الفخر الرازي أن يأتيهم أمر الله . اهـ .

فأنت ترى من نقل هذا الرجل عن أسلافه في التعطيل مدى اضطرابهم في التخريج والتأويل .

على أن الآيات صريحة في بابها لا تقبل شيئاً من تلك التأويلات فالآية الأولى تتوعد هؤلاء المصرين على كفرهم وعنادهم واتباعهم للشيطان بأنهم ما ينتظرون إلا أن يأتيهم الله عز وجل في ظلل الغمام لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة ، ولهذا قال بعد ذلك : (**وقضي الأمر**) والآية الثانية أشد صراحة إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيها بأنه إتيان

إلَّا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ ، ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا ، وجاء ربك والملك صفًّا صفاً ﴾ ، ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ ، وقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام - كل شيء هالك إلَّا وجهه ﴾ ،

الأمر أو العذاب لأنه ردد فيها بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب سبحانه[1] .

* وقوله في الآية التي بعدها : (**وجاء ربك والملك صفاً صفاً**) لا يمكن حملها على مجيء العذاب ، لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء ، والملائكة صفوف إجلالاً وتعظيماً له ، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام كما أفادته الآية الأخيرة . وهو سبحانه يجيء ويأتي وينزل ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقه . فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة ، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله واعتقاد أن ذلك المجيء والإتيان من جنس مجيء المخلوقين وإتيانهم نزوع إلى التشبيه يفضي إلى الإنكار والتعطيل .

* قوله : (**ويبقى وجه ربك إلخ**) : تضمنت هاتان الآيتان إثبات صفة الوجه لله عز وجل .

---

(١) قال ابن القيم في (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة) : (فرق بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب ، فقسم ونوع ومع هذا التقسيم يمتنع أن القسمين واحد فتأمله قال ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه وقالوا هذا يأباه التقسيم والترديد والإطراد) اهـ . المراد من كلام ابن القيم . إسماعيل الأنصاري .

والنصوص في إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة وكلها تنفي تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات ، والذي عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات ولا يقتضي إثباته كونه تعالى مركباً من أعضاء كما يقوله المجسمة ، بل هو صفة لله على ما يليق به ، فلا يشبه وجهاً ولا يشبهه وجه .

واستدل المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات إذ لا خصوص للوجه في البقاء وعدم الهلاك .

ونحن نعارض هذا الاستدلال بأنه لو لم يكن لله عز وجل وجه على الحقيقة لما جاز استعمال هذا اللفظ في معنى الذات فإن اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن أن يستعمل في معنى آخر إلا إذا كان المعنى الأصلي ثابتاً للموصوف حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه ، على أنه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر فيقال : إنه أسند البقاء إلى الوجه ، ويلزم منه بقاء الذات بدلاً من أن يقال : أطلق الوجه وأراد الذات . وقد ذكر البيهقي نقلاً عن الخطابي أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه فقال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة وأن قوله : ذو الجلال والإكرام صفة للوجه والوجه صفة للذات .

وكيف يمكن تأويل الوجه بالذات أو بغيرها في مثل قوله عليه السلام في حديث الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات إلخ » وقوله فيما رواه أبو موسى الأشعرى : « حجابه النور

.... وقوله : ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي - وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ ،

أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

* قوله : (**ما منعك إلخ**) : تضمنت هاتان الآيتان إثبات اليدين صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق به ، فهو في الآية الأولى يوبخ إبليس على امتناعه عن السجود لآدم الذي خلقه بيديه ، ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة ، فإن الأشياء جميعاً حتى إبليس خلقها الله بقدرته فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها .

وفي حديث عبد الله بن عمرو « إن الله عز وجل خلق ثلاثة أشياء بيده : خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ، فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات في وقوعها بالقدرة دال على اختصاصها بأمر زائد .

وأيضاً فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله إلا في اليد الحقيقية ولم يرد قط بمعنى القدرة أو النعمة فإنه لا يسوغ أن يقال خلقه الله بقدرتين أو بنعمتين ، على أنه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما إلا في حق من اتصف باليدين على الحقيقة ، ولذلك لا يقال للريح يد ولا للماء يد .

وأما احتجاج المعطلة بأن اليد قد أفردت في بعض الآيات وجاءت

بلفظ الجمع في بعضها فلا دليل فيه ، فإن ما يصنع بالاثنين قد ينسب إلى الواحد ، تقول رأيت بعيني وسمعت بأذني والمراد عيناي وأذناي وكذلك الجمع يأتي بمعنى المثنى أحياناً كقوله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ والمراد قلباكما .

● وكيف يتأتى حمل اليد على القدرة أو النعمة مع ما ورد من إثبات الكف والأصابع واليمين والشمال والقبض والبسط وغير ذلك مما لا يكون إلا لليد الحقيقية .

● وفي الآية الثانية يحكي الله سبحانه مقالة اليهود قبحهم الله في ربهم ووصفهم إياه حاشاه بأن يده مغلولة أي : ممسكة عن الإنفاق .

ثم أثبت لنفسه سبحانه عكس ما قالوا ، وهو أن يديه مبسوطتان بالعطاء ينفق كيف يشاء ، كما جاء في الحديث إن يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار لا تغيضها نفقة . ترى لو لم يكن لله يدان على الحقيقة هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين .

ألا شاهت وجوه المتأولين .

* قوله : (**فاصبر لحكم ربك إلخ**) : في هذه الآيات الثلاث يثبت الله سبحانه لنفسه عيناً يرى بها جميع المرئيات ، وهي صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به فلا يقتضي إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما .

وتفسير المعطلة لها بالرؤية أو بالحفظ والرعاية نفي وتعطيل وأما

.... وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر - وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾ ،

إفرادها في بعض النصوص وجمعها في البعض الآخر فلا حجة لهم فيه على نفيها ، فإن لغة العرب تتسع لذلك ، فقد يعبر فيها عن الاثنين بلفظ الجمع ، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا في اليدين .

على أنه لا يمكن استعمال لفظ العين في شيء من هذه المعاني التي ذكروها إلا بالنسبة لمن له عين حقيقية فهل يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا إن الله يتمدح بما ليس فيه فيثبت لنفسه عيناً وهو عاطل عنها ؟ وهل يريدون أن يقولوا إن رؤيته للأشياء لا تقع بصفة خاصة بها بل هو يراها بذاته كلها ، كما تقول المعتزلة إنه قادر بذاته مريد بذاته إلخ وفي الآية الأولى يأمر الله نبيه ﷺ بالصبر لحكمه والاحتمال لما يلقاه من أذى قومه ، ويعلل ذلك الأمر بأنه بمرأى منه وفي كلاءته وحفظه .

● وفي الآية الثانية يخبر الله عز وجل عن نبيه نوح عليه السلام أنه لما كذبه قومه وحقت عليهم كلمة العذاب وأخذهم الله بالطوفان حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينه ذات ألواح عظيمة من الخشب ودسر ، أي مسامير جمع دسار تشد بها الألواح ،وأنها كانت تجري بعين الله وحراسته .

● وفي الآية الثالثة : خطاب من الله لنبيه موسى عليه السلام بأنه ألقى عليه محبة منه ، يعني أحبه هو سبحانه وحببه إلى خلقه ، وأنه صنعه على عينه ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالة إلى فرعون وقومه .

...........وقوله : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ ،

---

* قوله : (**لقد سمع الله**) : إلخ هذه الآيات ساقها المؤلف لإثبات صفات السمع والبصر والرؤية .

● أما السمع : فقد عبرت عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق وهي سمع ويسمع وسميع ونسمع وأسمع ، فهو صفة حقيقية لله يدرك بها الأصوات كما قدمنا .

● وأما البصر : فهو الصفة التي يدرك بها الأشخاص والألوان والرؤية لازمة له ، وقد جاء في حديث أبي موسى : « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً بصيراً إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وكل من السمع والبصر صفة كمال وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر ، وقد نزلت الآية الأولى في شأن خولة بنت ثعلبة حين ظاهر منها زوجها فجاءت تشكوا إلى رسول الله ﷺ وتحاوره وهو يقول لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه .

أخرج البخاري في صحيحه عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكوا إلى رسول الله ﷺ وأنا في ناحية من البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ الآيات » .

وقوله : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ ، وقوله : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون – إنني معكما أسمع وأرى – ألم يعلم بأن الله يرى – الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم – وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ ، وقوله : ﴿ وهو شديد المحال ﴾ ، وقوله :

● وأما الآية الثانية : فقد نزلت في فنحاص اليهودي الخبيث حين قال لأبي بكر رضي الله عنه لما دعاه إلى الإسلام : (والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله حاجة من فقر وأنه إلينا لفقير ولو كان غنياً ما استقرضنا) .

● وأما الآية الثالثة : فأم : بمعنى بل والهمزة فهى أم المنقطعة والاستفهام إنكاري يتضمن معنى التوبيخ ، والمعنى بل أيظن هؤلاء في تخفيهم واستتارهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى نسمع ذلك وحفظتنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون .

● وأما الآية الرابعة : فهي خطاب من الله عز وجل لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين شكوا إلى الله خوفهما من بطش فرعون بهما ، فقال لهما : ﴿ لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ .

● وأما الآية الخامسة : فقد نزلت في شأن أبي جهل لعنه الله حين نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند البيت فنزل قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ إلخ السورة .

* وقوله : (**وهو شديد المحال إلخ**) : تضمنت هذه الآيات إثبات

﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ ، وقوله : ﴿ ومكروا

صفتي المكر والكيد[1] وهما من صفات الفعل الاختيارية ، ولكن لا ينبغي أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم ، فيقال ماكر وكائد بل يوقف عندما ورد به النص من أنه خير الماكرين ، وأنه يكيد لأعدائه الكافرين .

* أما قوله سبحانه : (**وهو شديد المحال**) : فمعناه شديد الأخذ بالعقوبة كما في قوله تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ .

وقال ابن عباس : معناه شديد الحول ، وقال مجاهد شديد القوة والأقوال متقاربة .

* وأما قوله : (**والله خير الماكرين**) : فمعناه أنفذهم وأسرعهم مكراً .

وقد فسر بعض السلف مكر الله بعباده بأنه استدراجهم بالنعم من حيث لا يعلمون ، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة ، وفي الحديث : « إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلم إنما ذلك منه استدراج » .

---

(١) قرر ابن القيم في (الصواعق) أن الله تعالى يصف نفسه بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع مطلقاً بل على وجه الجزاء لمن فعل ذلك وهو حسن وأن أفعال هذه الألفاظ لا يجوز إطلاقها على الله تعالى ولا يشتق له منها أسماء لأنها تمدح في موضع وتذم في موضع وأتى ابن القيم في ذلك بما لا يستغنى عنه لولا الإطالة ومن كلامه ذلك يتبين مراد شيخ الإسلام بإيراد قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ وقوله : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ وقوله : ﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً ﴾ في هذا الكتاب . إسماعيل الأنصاري .

مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ ، وقوله : ﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً ﴾ ، وقوله : ﴿إن تبدو خيراً أو تخفوه أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً – وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون

وقد نزلت هذه الآية في شأن عيسى عليه السلام حين أراد اليهود قتله فدخل بيتاً فيه كوة وقد أيده الله بجبريل عليه السلام فرفعه إلى السماء من الكوة ، فدخل عليه يهوذا ليدلهم عليه فيقتلوه فألقى الله شبه عيسى على ذلك الخائن ، فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى خرج إليهم وهو يقول ما في البيت أحد ، فقتلوه وهم يرون أنه عيسى فذلك قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ .

* وأما قوله تعالى : (**ومكروا مكراً إلخ**) : فهى في شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، أي ليقتلنه بياتاً هو وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله ، فكان عاقبة هذا المكر منهم أن مكر الله بهم فدمرهم وقومهم أجمعين .

* قوله : (**إن تبدوا خيراً إلخ**) : هذه الآيات تضمنت إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والتبارك والجلال والإكرام .

* (**فالعفو**) الذي هو اسمه تعالى معناه المتجاوز عن عقوبة عباده إذا هم تابوا إليه وأنابوا كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ .

ولما كان أكمل العفو ما كان عن قدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة جاء هذان الاسمان الكريمان العفو والقدير ، مقترنين في هذه الآية وفي

أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ ، وقوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ، وقوله عن إبليس : ﴿ فبعزتك لأغوينهم

غيرهما .

* وأما (**القدرة**) فهي الصفة التي تتعلق بالممكنات إيجاداً وإعداماً فكل ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته كما في الحديث : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وأما قوله تعالى : (**وليعفوا وليصفحوا**) الآية فقد نزلت في شأن أبي بكر رضي الله عنه حين حلف لا ينفق على مسطح بن أثاثة ، وكان ممن خاضوا في الإفك ، وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر ، فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر ، والله إني لأحب أن يغفر الله لي ووصل مسطحاً .

* وأما قوله تعالى : (**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**) : فقد نزلت في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين ، وكان في بعض الغزوات قد أقسم ليخرجن رسول الله ﷺ هو وأصحابه من المدينة فنزل قوله تعالى : ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ يقصد بالأعز قبحه الله نفسه وأصحابه . ويقصد بالأذل رسول الله ومن معه من المؤمنين ، فرد الله عز وجل بقوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ .

والعزة صفة أثبتها الله عز وجل لنفسه ، قال تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ وقال : ﴿ وكان الله قويًّا عزيزاً ﴾ وأقسم بها سبحانه كما في حديث الشفاعة : « وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله » وأخبر عن إبليس أنه قال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم

أجمعين ﴾ ، وقوله : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ ، وقوله : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له

أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة : « بينا أيوب عليه السلام يغتسل عريانا خرّ عليه جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال بلى وعزتك ولكن لا غنى لي عن بركتك » .

وقد جاء في حديث الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لما كان به وجع : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

والعزة تأتي بمعنى الغلبة والقهر من عز يعز بضم العين في المضارع يقال : عزه إذا غلبه ، وتأتي بمعنى القوة والصلابة من عز يعز بفتحها ، ومنه أرض عزاز للصلبة الشديدة ، وتأتى بمعنى علو القدر والامتناع عن الأعداء من عز يعز بكسرها ، وهذه المعانى كلها ثابته لله عز وجل .

* وأما قوله تعالى : (**تبارك اسم ربك**) : فإنه من البركة بمعنى دوام الخير وكثرته ، وقوله : (**ذي الجلال**) : أي صاحب الجلال والعظمة سبحانه الذي لا شيء أجل ولا أعظم منه (**والإكرام**) لله الذي يكرم عما لا يليق به وقيل : الذي يكرم عباده الصالحين بأنواع الكرامة في الدنيا والآخرة والله أعلم .

* قوله : (**فاعبده**) : إلخ تضمنت هذه الآيات الكريمة جملة من صفات السلوب وهي نفي السمى والكفؤ والنديد والولدوالشريك

سميًّا – ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، وقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون –

والولي من ذل وحاجة . كما تضمنت بعض صفات الإثبات من الملك والحمد والقدرة والكبرياء والتبارك .

* أما قوله تعالى : (**هل تعلم له سمياً**) : فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله : (قال أهل اللغة : هل تعلم له سميّاً ، أي نظيراً استحق مثل اسمه ويقال : مسامياً يساميه ، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس : « هل تعلم له سمياً » ، مثلاً أو شبيهاً) .

والاستفهام في الآية إنكاري معناه النفي ، أي لا تعلم له سميّاً .

* وأما قوله : (**ولم يكن له كفواً أحد**) : فالمراد بالكفؤ المكافيء المساوي . فهذه الآية تنفي عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه لأن أحداً وقع نكرة في سياق النفي فيعم ، وقد تقدم الكلام على تفسير سورة الإخلاص كلها فليرجع إليها .

* وأما قوله : (**فلا تجعلوا لله أنداداً**) : إلخ : فالأنداد جمع ند ومعناه كما قيل النظير المناويء ، ويقال ليس لله ند ولا ضد ، والمراد نفي ما يكافئه ويناوئه ، ونفي ما يضاده وينافيه .

* وجملة : (**وأنتم تعلمون**) : وقعت حالاً من الواو في تجعلوا ، المعنى إذا كنتم تعلمون أن الله هو وحده الذي خلقكم ورزقكم وأن هذه الآلهة التي جعلتموها له نظراء وأمثالاً وساويتموها به في استحقاق العبادة لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة ولا تملك لكم ضراً ولا نفعاً فاتركوا

.... ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ ، وقوله : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ ،

عبادتها وأفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم .

* وأما قوله : (**ومن الناس من يتخذ إلخ**) : **فهو** إخبار من الله عن المشركين بأنهم يحبون آلهتهم كحبهم لله عز وجل ، يعني يجعلونها مساوية له في الحب ﴿ والذين آمنوا أشد حبًّا لله ﴾ من حب المشركين لآلهتهم لأنهم أخلصوا له الحب وأفردوه به . أما حب المشركين لآلهتهم فهو موزع بينها ، ولا شك أن الحب إذا كان لجهة واحدة كان أمكن وأقوى . وقيل : المعنى أنهم يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله ، والذين آمنوا أشد حباً لله من الكفار لأندادهم .

* وأما قوله : (**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً**) الآية : **فقد** تقدم الكلام في معنى الحمد ، وأنه الثناء باللسان على النعمة وغيرها ، وقلنا إن إثبات الحمد له سبحانه متضمن لإثبات جميع الكمالات التي لا يستحق الحمد المطلق إلا من بلغ غايتها .

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافي كمال الحمد من الولد والشريك والولي من الذل ، أي من فقر وحاجة ، فهو سبحانه لا يوالي أحداً من خلقه من أجل ذلة وحاجة إليه ، ثم أمر عبده ورسوله أن يكبره تكبيراً ، أي يعظمه تعظيماً وينزهه عن كل صفة نقص وصفه بها أعداؤه من المشركين .

.... ﴿ **يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير** ﴾ ، **وقوله** : ﴿ **تبارك الذي**

---

* وأما قوله : (**يسبح لله ، إلخ**) : فالتسبيح هو التنزيه والإبعاد عن السوء كما تقدم .

ولاشك أن جميع الأشياء في السموات وفي الأرض تسبح بحمد ربها وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزة والحكمة والتدبير والرحمة قال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

وقد اختلف في تسبيح الجمادات التي لا تنطق هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال وعندي أن الثاني أرجح بدليل قوله تعالى : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ إذ لو كان المراد تسبيحها بلسان الحال لكان ذلك معلوماً فلا يصح الاستدراك ، وقد قال تعالى خبراً عن داود عليه السلام : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب ﴾ .

* وأما قوله تعالى : (**تبارك الذي إلخ**) : فقد قلنا : إن معنى تبارك من البركة وهي دوام الخير وكثرته ولكن لا يلزم من تلك الزيادة سبق النقص ، فإن المراد تجدد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته ، فإنها تتجدد في ذاته على وفق حكمته ، فالخلو عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لا يعتبر نقصاً[1].

---

(١) أطال ابن القيم في جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام البحث في لفظ (تبارك) ومما ذكره في ذلك قوله : (قال أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنه=

نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ ، قوله : ﴿ ما اتخذ الله من ولد

وقد فسر بعضهم التبارك بالثبات وعدم التغير ، ومنه سميت البركة لثبوت مائها وهو بعيد ، والمراد بالفرقان القرآن ، سمي بذلك لقوة تفرقته بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والتعبير (بنزل) بالتشديد لإفادة التدرج في النزول ، وأنه لم ينزل جملة واحدة ، والمراد بعبده محمد ﷺ والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف كما سبق ، والعالمين جمع عالم ، وهو جمع لم يعقل ، واختلف في المراد به ، فقيل الإنس ، وقيل الإنس والجن ، وهو الصحيح ، فقد ثبت أن النبي ﷺ مرسل إلى الجن أيضاً ، وأنه يجتمع بهم ويقرأ عليهم القرآن ، وأن منهم نفراً أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر قومه به ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ والنذير والمنذر هو من يُعلم بالشيء مع التخويف وضده البشير أو المبشر وهو من يخبرك بما يسرك .

* وقوله : (**ما اتخذ الله من ولد إلخ**) : تضمنت هذه الآية الكريمة

= تبارك بمعنى تعالى وقال أبو العباس : تبارك ارتفع والمتبارك المرتفع ، وقال ابن الأنباري تبارك بمعنى تقدس وقال الحسن : تبارك تجيء البركة من قبله . وقال الضحاك : تبارك تعاظم ، وقال الخليل بن أحمد تمجد ، وقال الحسين بن الفضل : تبارك في ذاته وبارك فيمن يشاء من خلقه ، وهذا أحسن الأقوال ، فتباركه سبحانه صفة ذات له وصفة فعل كما قال الحسين بن الفضل) ولو سلك المؤلف هذا المسلك لأجاد . إسماعيل الأنصاري .

وما كان معه من إلـٰـه إذاً لذهب كل إلـٰـه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة

أيضاً جملة من صفات التنزيه التي يراد[1] نفي ما لا يليق بالله عز وجل عنه ، فقد نزه سبحانه نفسه فيها عن اتخاذ الولد وعن وجود إله خالق معه وعما يصفه به المفترون الكذابون ، كما نهى عن ضرب الأمثال له والإشراك به بلا حجة ولا برهان ، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل .

فهذه الآية تضمنت إثبات توحيد الإلهية وإثبات توحيد الربوبية ، فإن الله بعدما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة فقال : (إذاً) أي إذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض .

وتوضيح هذا الدليل أن يقال : إذا تعددت الآلهة فلا بد أن يكون لكل منهم خلق وفعل ولا سبيل إلى التعاون فيما بينهم فإن الاختلاف بينهم ضروري ، كما أن التعاون بينهم في الخلق يقتضي عجز كل منهم عند الانفراد ، والعاجز لا يصلح إلهاً ، فلا بد أن يستقل كل منهم بخلقه وفعله ، وحينئذ فإما أن يكونوا متكافئين في القدرة لا يستطيع كل منهم أن يقهر الآخرين ويغلبهم فيذهب كل منهم بما خلق ويختص بملكه كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كل بمملكته إذ لم يجد سبيلاً لقهر الآخرين ، وإما أن يكون أحدهم أقوى من الآخرين فيغلبهم ويقهرهم وينفرد دونهم

---

(١) كذا في الأصل ولعل الأصل « يراد بها » إسماعيل الأنصاري .

بالخلق والتدبير ، فلا بد إذاً مع تعدد الآلهة من أحد هذين الأمرين ، إما ذهاب كل بما خلق أو علو بعضهم على بعض .

وذهاب كل بما خلق غير واقع لأنه يقتضي التنافر والانفصال بين أجزاء العالم مع أن المشاهدة تثبت أن العالم كله كجسم واحد مترابط الأجزاء متسق الأنحاء فلا يمكن أن يكون إلا أثراً لإله واحد وعلو بعضهم على بعض يقتضي أن يكون الإله هو العالي وحده .

* وأما قوله تعالى : (**فلا تضربوا لله الأمثال**) : فهو نهي لهم أن يشبهوه بشيء من خلقه فإنه سبحانه له المثل الأعلى الذي لا يشركه فيه مخلوق .

وقد قدمنا أنه لا يجوز أن يستعمل في حقه من الأقيسة ما يقتضي المماثلة أو المساواة بينه وبين غيره كقياس التمثيل وقياس الشمول . وإنما يستعمل في ذلك قياس الأولى الذي مضمونه أن كل كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف به[1] المخلوق ، فالخالق أولى أن يتصف به لأنه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال ، ولأنه لو لم يتصف بذلك مع إمكان أن يتصف به لكان في الممكنات من هو أكمل منه وهو محال وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه .

(١) لفظ « به » ليس في الأصل ولكن يقتضيه السياق . إسماعيل الأنصاري .

............قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً

---

* وأما قوله : (**قل إنما حرم**) إلخ : فإنما : أداة قصر تفيد اختصاص الأشياء المذكورة بالحرمة فيفهم أن من عداها من الطيبات فهو مباح لا حرج فيه ، كما أفادته الآية التي قبلها .

* (**والفواحش**) : جمع فاحشة وهي الفعلة المتناهية في القبح وخصها بعضهم بما تضمن شهوة ولذة من المعاصي كالزنا واللواط ونحوهما من الفواحش الظاهرة ، وكالكبر والعجب وحب الرياسة من الفواحش الباطنة .

* وأما (**الإثم**) : فمنهم من فسره بمطلق المعصية فيكون المراد منه ما دون الفاحشة ، ومنهم من خصه بالخمر فإنها جماع الإثم ، وأما البغي بغير الحق فهو التسلط والاعتداء على الناس من غير أن يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة .

* وقوله : (**وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً**) : وحرم أن تعبدوا مع الله غيره وتتقربوا إليه بأي نوع من أنواع العبادات والقربات كالدعاء والنذر والذبح والخوف والرجاء ونحو ذلك ، مما يجب أن يخلص فيه العبد قلبه ويسلم وجهه لله وحرم أن يتخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرعون لهم من الدين مالم يأذن به الله في عباداتهم ومعاملاتهم كما فعل أهل الكتاب مع الأحبار والرهبان حيث اتخذوهم أرباباً من دون الله في التشريع فأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله فاتبعوهم في ذلك وقوله : (**مالم ينزل به سلطاناً**) : قيد لبيان الواقع ، فإن كل ما عبد أو

وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ، وقوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ في سبع مواضع ، في سورة الأعراف قوله :

اتبع أو أطيع من دون الله قد فعل به ذلك من غير سلطان .

* وأما (**القول على الله بلا علم**) فهو باب واسع جدّاً يدخل فيه كل خبر عن الله بلا دليل ولا حجة ، كنفي ما أثبته أو إثبات ما نفاه أو الإلحاد في آياته بالتحريف والتأويل .

قال العلامة ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين : (وقد حرم الله القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله في المرتبة العليا منها قال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ الآية ، فرتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش وثنى بما هو أشد تحريماً منه وهو الإثم والظلم ثم ثلث بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشرك به سبحانه ثم ربع بما هو أعظم تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه .

* وقوله : (**الرحمن على العرش استوى**) إلخ : هذه هي المواضع السبعة التي أخبر فيها سبحانه باستوائه على العرش وكلها قطعية الثبوت ، لأنها من كتاب الله ، فلا يملك الجهمي المعطل لها رداً ولا إنكاراً ، كما أنها صريحة في بابها لا تحتمل تأويلاً ، فإن لفظ استوى في اللغة إذا عدي بعلى لا يمكن أن يفهم منه إلا العلو والارتفاع ، ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن أربع عبارات ، ذكرها العلامة ابن القيم في النونية حيث قال :

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ ، وقال في سورة يونس عليه السلام : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ .

وقال في سورة الرعد : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ﴾ ، وقال في سورة طه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، وقال في سورة الفرقان : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ ، وقال في سورة ألم السجدة : ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ ، وقال في سورة الحديد : ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ ،

فلهم عبارات عليها أربـع ... قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستو على عرشه بائن من خلقه بالكيفية التي يعلمها هو جل شأنه كما قال مالك وغيره : (الاستواء معلوم والكيف مجهول) وأما ما يشغب به أهل التعطيل من إيراد اللوازم الفاسدة على تقرير الاستواء فهي لا تلزمنا لأننا لا نقول بأن فوقيته على العرش كفوقية المخلوق على المخلوق .

وأما ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسدة التي تدل على حيرتهم واضطرابهم كتفسيرهم استوى باستولى أو حملهم (على) على معنى إلى واستوى بمعنى قصد إلى آخر ما نقله عنهم حامل لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثري فكلها تشغيب بالباطل وتغيير في وجه الحق لا يغني عنهم في قليل ولا كثير وليت شعري ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا ؟ أيريدون أن يقولوا ليس في السماء رب يقصد ولا فوق العرش إلٰه يعبد ؟ فأين يكون إذن ؟ ولعلهم يضحكون منا حين نسأل عنه بأين ، ونسوا أن أكمل الخلق وأعلمهم بربهم صلوات الله عليه وسلامه قد سأل عنه بأين حين قال للجارية : « أين الله ؟ » ورضي جوابها حين قالت : في السماء ، وقد أجاب كذلك من سأله بأين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض بأنه كان في عماء ؛ الحديث ، ولم يرو عنه أنه زجر السائل ولا قال له : إنك غلطت في السؤال .

إن قصارى ما يقوله المتحذلق منهم في هذا الباب : إن الله تعالى كان ولا مكان ، ثم خلق المكان وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان .

فماذا يعني هذا المخرف بالمكان الذي كان الله ولم يكن ؟ هل يعني به تلك الأمكنة الوجودية التي هى داخل محيط العالم ؟ فهذه أمكنة حادثة ونحن لا نقول بوجود الله في شيء منها إذ لا يحصره ولا يحيط به شيء من مخلوقاته .

وأما إذا أراد بها المكان العدمي الذي هو خلاء محض لا وجود

فيه ، فهذا لا يقال إنه لم يكن ثم خلق ، إذاً لا يتعلق به الخلق فإنه أمر عدمي - فإذا قيل إن الله في مكان بهذا المعنى كما دلت عليه الآيات والأحاديث فأي محذور في هذا ؟

بل الحق أن يقال : كان الله و لم يكن شيء قبله ثم خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ثم استوى على العرش ، وثم هنا للترتيب الزماني لا لمجرد العطف .

* وقوله : (**يا عيسى**) إلخ : هذه الآيات جاءت مؤيدة لما دلت عليه الآيات السابقة من علوه تعالى وارتفاعة فوق العرش مبايناً للخلق ، وناعية على المعطلة جحودهم وإنكارهم لذلك ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . ففي الآية الأولى ينادي الله رسوله وكلمته عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بأنه متوفيه ورافعه إليه حين دبر اليهود قتله ، والضمير في قوله : (إليَّ) هو ضمير الرب جل شأنه لا يحتمل غير ذلك ، فتأويله بأن المراد إلى محل رحمتي أو مكان ملائكتي إلخ لا معنى له ، ومثل ذلك يقال أيضاً في قوله سبحانه ردّاً على ما ادعاه اليهود من قتل عيسى وصلبه : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ .

وقد اختلف في المراد بالتوفي المذكور في الآية فحمله بعضهم على الموت ، والأكثرون على أن المراد به النوم ، ولفظ المتوفي يستعمل فيه قال تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ .

ومنهم من زعم أن في الكلام تقديماً وتأخيراً وأن التقدير إني رافعك ومتوفيك ، أي مميتك بعد ذلك . والحق أنه عليه السلام رفع

إليه – إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه – يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إلـٰه موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ ، وقوله : ﴿ أأمنتم من في السماء

حيّاً وأنه سينزل قرب قيام الساعة لصحة الحديث بذلك .

* وأما قوله سبحانه : (**إليه يصعد الكلم الطيب**) : **فهو** صريح أيضاً في صعود أقوال العباد وأعمالهم إلى الله عز وجل ، يصعد بها الكرام الكاتبون كل يوم عقب صلاة العصر وعقب صلاة الفجر كما جاء في الحديث : فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : يا ربنا أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون .

* وأما قوله سبحانه حكاية عن فرعون : (**يا هامان إلخ**) : **فهو** دليل على أن موسى أخبر فرعون الطاغية بأن إلـٰهه في السماء فأراد أن يتلمس الأسباب للوصول إليه تمويهاً على قومه ، فأمر وزيره هامان أن يبني له الصرح ، ثم عقب على ذلك بقوله : (**وإني لأظنه**) أي : موسى « كاذباً » فيما أخبر به من كون إلـٰهه في السماء . فمن إذاً أشبه بفرعون وأقرب إليه نسباً ؟ نحن أم هؤلاء المعطلة إن فرعون كذب موسى في كون إلـٰهه في السماء ، وهو نفس ما يقوله هؤلاء .

* قوله : (**أأمنتم إلخ**) : هاتان الآيتان فيهما التصريح بأن الله عز وجل في السماء ولا يجوز حمل ذلك على أن المراد به العذاب أو الأمر أو الملك كما يفعل المعطلة لأنه قال « من » ، وهي للعاقل[1] ،

---

(١) لو عبر المؤلف هنا بلفظ (للعالم) بدل قوله (للعاقل) لأصاب . إسماعيل الأنصاري .

أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ .

﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون

وحملها على الملك إخراج اللفظ عن ظاهره بلا قرينة توجب ذلك .

ولا يجوز أن يفهم من قوله : « في السماء » أن السماء ظرف له سبحانه بل إن أريد بالسماء هذه المعروفة ، ففي : بمعنى على كما في قوله تعالى : ﴿ لأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ وإن أريد به جهة العلو ففي : على حقيقتها فإنه سبحانه في أعلى العلو .

* قوله : (**هو الذي خلق السموات إلخ**) : تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات صفة المعية له عز وجل وهي على نوعين :

● **معية عامة** : شاملة لجميع المخلوقات ، فهو سبحانه مع كل شيء بعلمه وقدرته وقهره وإحاطته ، لا يغيب عنه شيء ولا يعجزه ، وهذه المعية المذكورة في الآية .

ففي هذه الآية يخبر عن نفسه سبحانه بأنه هو وحده الذي خلق السموات والأرض يعني أوجدهما على تقدير وترتيب سابق في مدة ستة أيام ، ثم علا بعد ذلك وارتفع على عرشه لتدبير أمور خلقه ، وهو مع كونه فوق عرشه لا يغيب عنه شيء من العالمين العلوي والسفلي ، فهو (**يعلم ما يلج**) ، أي يدخل (**في الأرض**) ، (**وما يخرج منها وما**

بصير ﴾ ، وقوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلَّا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم - لا تحزن إن الله معنا ﴾ ،

ينزل من السماء وما يعرج) أي : يصعد (**فيها**) ولا شك أن من كان علمه وقدرته محيطين بجميع الأشياء فهو مع كل شيء ، ولذلك قال : (**وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير**) .

* قوله : (**ما يكون من نجوى إلخ**) : يثبت سبحانه شمول علمه وإحاطته بجميع الأشياء ، وأنه لا يخفى عليه نجوى المتناجين ، وأنه شهيد على الأشياء كلها مطلع عليها .

* وإضافة (**نجوى**) إلى ثلاثة من إضافة الصفة إلى الموصوف والتقدير ما يكون من ثلاثة نجوى ، أي متناجين .

● وأما الآيات الباقية فهي في إثبات **المعية الخاصة** التي هي معيته لرسله تعالى وأوليائه بالنصر والتأييد والمحبة والتوفيق والإلهام .

* فقوله تعالى : (**لا تحزن إن الله معنا**) : حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر الصديق وهما في الغار ، فقد أحاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا في طلبه عليه السلام ، فلما رأى أبو بكر ذلك انزعج وقال : والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا ، فقال له الرسول ﷺ ما حكاه الله عز وجل هنا : (**لا تحزن إن الله معنا**) .

.... وقوله : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى – إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون – واصبروا إن الله مع الصابرين – كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ ، وقوله ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً – ومن أصدق

فالمراد بالمعية هنا معية النصر والعصمة من الأعداء .

* وأما قوله : (**إنني معكما أسمع وأرى**) : فقد تقدم الكلام عليه[1] وأنها خطاب لموسى وهارون عليهما السلام أن لا يخافا بطش فرعون بهما ؛ لأن الله عز وجل معهما بنصره وتأييده .

وكذلك بقية الآيات يخبر الله فيها عن معيته للمتقين الذين يراقبون الله عز وجل في أمره ونهيه ويحفظون حدوده وللمحسنين الذين يلتزمون الإحسان في كل شيء ، والإحسان يكون في كل شيء بحسبه فهو في العبادة مثلاً أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما جاء في حديث جبريل عليه السلام .

وكذلك يخبر عن معيته للصابرين الذين يحبسون أنفسهم على ما تكره ويتحملون المشاق والأذى في سبيل الله وابتغاء وجهه صبراً على طاعة الله وصبراً عن معصيته وصبراً على قضائه .

تضمنت هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله عز وجل .

وقد تنازع الناس حول هذه المسألة نزاعاً كبيراً . فمنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقاً منفصلاً منه . وقال : إن معنى متكلم : خالق

---

(١) ليس في الأصل لفظ (عليه) ولكن السياق يقتضيه . إسماعيل الأنصاري .

من الله قيلاً – وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم – وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ ، وقوله : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً – منهم من كلم الله – ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه – وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً ﴾ ، وقوله : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين – وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ﴾ ،

للكلام وهم المعتزلة . ومنه من جعله لازماً لذاته أزلاً وأبداً لا يتعلق بمشيئته وقدرته ونفى عنه الحرف والصوت وقال إنه معنى واحد في الأزل ، وهم الكلابية والأشعرية .

ومنهم من زعم أنه حروف وأصوات قديمة لازمة للذات ، وقال : إنها مقترنة في الأزل ، فهو سبحانه لا يتكلم بها شيئاً بعد شيء وهم بعض الغلاة .

ومنهم من جعله حادثاً قائماً بذاته تعالى ومتعلقاً بمشيئته وقدرته ولكن زعم أن له ابتداء في ذاته وأن الله لم يكن متكلماً في الأزل ، وهم الكرامية . ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الأقوال وإفسادها على أن فسادها بين لكل ذي فهم سليم ونظر مستقيم .

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته ، فهو لم يزل ولا يزال متكلماً إذا شاء وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقاً منفصلاً عنه كما تقول المعتزلة ولا لازماً لذاته لزوم الحياة لها كما تقول الأشاعرة بل هو تابع لمشيئته وقدرته .

والله سبحانه نادى موسى بصوت ونادى آدم وحواء بصوت ، وينادى عباده يوم القيامة بصوت ويتكلم بالوحى بصوت ، ولكن الحروف والأصوات التي تكلم الله بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم ، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده ، فإن الله لا يماثل المخلوقين في شيء من صفاته .

والآيتان الأوليان هنا وهما من سورة النساء تنفيان أن يكون أحد أصدق حديثاً وقولاً من الله عز وجل بل هو سبحانه أصدق من كل أحد في كل ما يخبر به ، وذلك لأن علمه بالحقائق المخبر عنها أشمل وأضبط ، فهو يعلمها على ما هي به من كل وجه ، وعلم غيره ليس كذلك .

* وأما قوله : (**وإذ قال الله يا عيسى**) : إلخ : **فهو** حكاية لما سيكون يوم القيامة من سؤال الله لرسوله وكلمته عيسى عما نسبه إليه الذين ألهوه وأمه من النصارى من أنه هو الذى أمرهم بأن يتخذوه وأمه إلٰهين من دون الله . وهذا السؤال لإظهار براءة عيسى عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الضالين الأغبياء .

* وأما قوله : (**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**) : فالمراد صدقاً في أخباره وعدلاً في أحكامه ؛ لأن كلامه تعالى إما إخبار وهي كلها في غاية الصدق ، وإما أمر ونهي وكلها في غاية العدل الذى لا جور فيه لابتنائها على الحكمة والرحمة ، والمراد بالكلمة هنا الكلمات لأنها أضيفت إلى معرفة فتفيد معنى الجمع كما في قولنا : رحمة الله ونعمة الله .

وقوله : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم .... المرسلين – وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع

---

* وأما قوله : (**وكلم الله موسى تكليماً**): وما بعدها من الآيات التي تدل على أن الله قد نادى موسى وكلمه تكليماً ، وناجاه حقيقة من وراء حجاب وبلا واسطة ملك ، فهي ترد على الأشاعرة الذين يجعلون الكلام معنى قائماً بالنفس بلا حرف ولا صوت ، فيقال لهم كيف سمع موسى هذا الكلام النفسي ؟ فإن قالوا ألقى الله في قلبه علماً ضرورياً بالمعاني التي يريد أن يكلمه بها لم يكن هناك خصوصية لموسى في ذلك ، وإن قالوا إن الله خلق كلاماً في الشجرة أو في الهواء ونحو ذلك لزم أن تكون الشجرة هي التي قالت لموسى : ﴿ إني أنا ربك ﴾ .

وكذلك ترد عليهم هذه الآيات في جعلهم الكلام معنى واحداً في الأزل لا يحدث منه في ذاته شيء ، فإن الله يقول : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ فهي تفيد حدوث الكلام عند مجيء موسى للميقات ، ويقول : ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن ﴾ فهذا يدل على حدوث النداء عند جانب الطور الأيمن ، والنداء لا يكون إلا صوتاً مسموعاً . وكذلك قوله تعالى في شأن آدم وحواء : ﴿ وناداهما ربهما ﴾ ، الآية ، فإن هذا النداء لم يكن إلا بعد الوقوع في الخطيئة فهو حادث قطعاً . وكذلك قوله تعالى : ﴿**ويوم يناديهم إلخ** ﴾ فإن هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة ، وفي الحديث : « ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان » .

* قوله : (**وإن أحد من المشركين إلخ**) : هذه الآيات الكريمة

كلام الله – وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون – يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل – واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ﴾ ، وقوله : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون – وهذا كتاب أنزلناه مبارك – لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله – وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا

تفيد أن القرآن المتلو المسموع المكتوب بين دفتي المصحف هو كلام الله على الحقيقة وليس فقط عبارة أو حكاية عن كلام الله كما يقوله الأشعرية ، وإضافته إلى الله عز وجل تدل على أنه صفة له قائمة به وليست كإضافة البيت أو الناقة فإنها إضافة معنى إلى الذات تدل على ثبوت المعنى لتلك الذات ، بخلاف إضافة البيت أو الناقة فإنها إضافة أعيان – وهذا يرد على المعتزلة في قولهم إنه مخلوق منفصل عن الله ، ودلت هذه الآيات أيضاً على أن القرآن منزل من عند الله بمعنى أن الله تكلم به بصوت سمعه جبريل عليه السلام ، فنزل به وأداه إلى رسول الله ﷺ كما سمعه من الرب جل شأنه .

وخلاصة القول في ذلك أن القرآن العربي كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . والله تكلم به على الحقيقة ، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره ، وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه في المصاحف لم يخرجه ذلك عن أن يكون كلام الله ، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من بلغه مؤدياً والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ

إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ، ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين – ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ ، وقوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى

نفسه ليس شيء منه كلاماً لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما والله تكلم به أيضاً بصوت نفسه ، فإذا قرأه العباد قرأوه بصوت أنفسهم ، فإذا قال القاريء مثلاً : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله . وكما أن القرآن كلام الله فكذلك هو كتابه لأنه كتبه في اللوح المحفوظ ولأنه مكتوب في المصاحف قال تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ﴾ وقال : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ وقال : ﴿ في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ .

والقرآن في الأصل مصدر كالقراءة ، كما في قوله تعالى : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

ويراد به هنا أن يكون علماً على هذا المنزل من عند الله المكتوب بين دفتي المصحف المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه .

* وقوله : (**قل نزله روح القدس من ربك بالحق**) : يدل على أن ابتداء نزوله من عند الله عز وجل ، وأن روح القدس جبريل عليه السلام تلقاه عن الله سبحانه بالكيفية التي يعلمها .

* قوله : (**وجوه يومئذ ناضرة**) إلخ : هذه الآيات تثبت رؤية

ربها ناظرة – على الأرائك ينظرون – للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ، وقوله : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ ، وهذا الباب في كتاب الله كثير . من تدبر القرآن طالباً للهدى منه تبين له طريق الحق .

المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة في الجنة .

وقد نفاها المعتزلة بناء على نفيهم الجهة عن الله لأن المرئي يجب أن يكون في جهة من الرائي ، وما دامت الجهة مستحيلة وهي شرط في الرؤية فالرؤية كذلك مستحيلة ، واحتجوا من النقل بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ وقوله لموسى عليه السلام حين سأله الرؤية : ﴿ لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ﴾ .

وأما الأشاعرة فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية ، ولذلك حاروا في تفسير تلك الرؤية ، فمنهم من قال يرونه من جميع الجهات ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر ، وقال : المقصود زيادة الانكشاف والتجلي حتى كأنها رؤية عين .

وهذا الآيات التي أوردها المؤلف حجة على المعتزلة في نفيهم الرؤية . فإن الآية الأولى عدي النظر فيها بإلى فيكون بمعنى الإبصار يقال نظرت إليه وأبصرته بمعنى ومتعلق النظر هو الرب جل شأنه .

وأما ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم : ﴿ **ناظرة** ﴾ بمعنى منتظرة و (**إلى**) بمعنى النعمة والتقدير ثواب ربها منتظرة فهو تأويل مضحك .

* وأما الآية الثانية فتفيد أن أهل الجنة وهم على أرائكهم ، يعني أسرتهم ، جمع أريكة ينظرون إلى ربهم .

* وأما الآيتان الأخيرتان فقد صح عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عز وجل ويشهد لذلك أيضاً قوله تعالى في حق الكفار : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فدل حجب هؤلاء على أن أولياءه يرونه ، وأحاديث الرؤية متواترة في المعنى عند أهل العلم بالحديث لا ينكرها إلا ملحد زنديق .

وأما ما احتج به المعتزلة من قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فلا حجة لهم فيه ، لأن نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية ، فالمرد أن الأبصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية كما أن العقول تعلمه ولكن لا تحيط به علماً ، لأن الإدراك هو الرؤية على جهة الإحاطة ، فهو رؤية خاصة ونفي الخاص لا يستلزم نفي مطلق الرؤية ، وكذلك استدلالهم على نفي الرؤية بقوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ لن تراني ﴾ لا يصلح دليلاً بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة منها :

١ – وقوع السؤال من موسى وهو رسول الله وكليمه ، وهو أعلم بما يستحيل في حق الله من هؤلاء المعتزلة ، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها .

٢ – أن الله عز وجل علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلي وهو ممكن والمعلق على الممكن ممكن .

٣ – أن الله تجلى للجبل بالفعل وهو جماد ، فلا يمتنع إذاً أن يتجلى

لأهل محبته وأصفيائه.

وأما قولهم : إن (لن) لتأييد النفي وأنها تدل على عدم وقوع الرؤية أصلاً فهو كذب على اللغة ، فقد قال تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ ثم قال : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ فأخبر عن عدم تمنيهم للموت بلن ثم أخبر عن تمنيهم له وهم في النار .

وإذاً فمعنى قوله : ﴿ لن تراني ﴾ لن تستطيع رؤيتي في الدنيا لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته سبحانه ، ولو كانت الرؤية ممتنعة لذاتها لقال إني لا أرى ، أو لا يجوز رؤيتي أو لست بمرئي ونحو ذلك والله أعلم .

(مباحث عامة حول آيات الصفات)

إن الناظر في آيات الصفات التي ساقها المؤلف - رحمه الله - يستطيع أن يستنبط منها قواعد وأصولاً هامة يجب الرجوع إليها في هذا الباب .

● الأصل الأول : اتفق السلف على أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الأفعال ، مثال ذلك : القدرة مثلاً يجب الإيمان بأنه سبحانه على كل شيء قدير . والإيمان بكمال قدرته ، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات ، وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط . وعلى هذا فما ورد في هذه الآيات التي ساقها المصنف من الأسماء الحسنى فإنها داخلة في الإيمان

بالاسم ، وما فيها من ذكر الصفات مثل عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته وإرادته ومشيئته فإنها داخلة في الإيمان بالصفات وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة ، مثل يعلم كذا ويحكم ما يريد ، ويرى ويسمع ، وينادي ويناجي ، وكلم ويكلم ، فإنها داخلة في الإيمان بالأفعال .

● الأصل الثاني : دلت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان :

١ - صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات ، بل هي لازمة لها أزلاً وأبداً ولا تتعلق بها مشيئته تعالى وقدرته ، وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والملك والعظمة والكبرياء والمجد والجلال إلخ .

٢ - صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن وتحدث بمشيئته وقدرته آحاد تلك الصفات من الأفعال ، وإن كان هو لم يزل موصوفاً بها بمعنى أن نوعها قديم وأفرادها حادثة ، فهو سبحانه لم يزل فعالاً لما يريد ، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور وأفعاله تقع شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمته وإرادته ، فعلى المؤمن الإيما ن بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش والمجيء والإتيان والنزول إلى السماء الدنيا ، والضحك والرضى والغضب والكراهية والمحبة المتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وأنواع التدبير المختلفة .

● الأصل الثالث : إثبات تفرد الرب جل شأنه بكل صفة كمال وأنه ليس له شريك أو مثيل في شيء منها .

وما ورد في الآيات السابقة من إثبات المثل الأعلى له وحده ونفي الند والمثل والكفؤ والسمي والشريك عنه يدل على ذلك كما يدل على أنه منزه عن كل نقص وعيب وآفة .

● الأصل الرابع : إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات ، لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر ونحوها، والفعلية كالرضا والمحبة والغضب والكراهة ، وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوهما ، وبين الاستواء على العرش والنزول ، فكلها مما اتفق السلف على إثباته بلا تأويل ولا تعطيل ، وبلا تشبيه وتمثيل .

والمخالف في هذا الأصل فريقان :

١ – الجهمية : ينفون الأسماء والصفات جميعاً .

٢ – المعتزلة : فإنهم ينفون جميع الصفات ويثبتون الأسماء والأحكام ، فيقولون عليم بلا علم وقدير بلا قدرة وحي بلا حياة إلخ . وهذا القول في غاية الفساد ، فإن إثبات موصوف بلا صفة وإثبات ما للصفة للذات المجردة محال في العقل كما هو باطل في الشرع .

أما الأشعرية ومن تبعهم فإنهم يوافقون أهل السنة في إثبات سبع صفات يسمونها صفات المعاني ويدعون ثبوتها بالعقل ، وهي : الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، ولكنهم وافقوا المعتزلة في نفي ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التي صح بها الخبر .

(فصل)

ثم في سنة رسول الله ﷺ ، فالسنة تفسر القرآن وتبينه

والكل محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام .

* قوله : (**ثم في سنة رسول الله**) : عطف على قوله فيما تقدم ؛ وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص إلخ ، يعني ودخل فيها ما وصف به الرسول ﷺ ربه فيما وردت به السنة الصحيحة .

والسنَّة هي الأصل الثاني الذي يجب الرجوع إليه ، والتعويل عليه بعد كتاب الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة ﴾ والمراد بالحكمة السنة ، وقال : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ وقال آمراً لنساء نبيه : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال صلوات الله وسلامه عليه وآله : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » وحكم السنة حكم القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل ، فإن السنة توضيح للقرآن وبيان للمراد منه تفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عمومه ، كما قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ .

وتدل عليه وتعبر عنه ، وما وصف الرسول به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المَعرفة بالقبور وجب الإيمان بها كذلك . فمن ذلك مثل قوله ﷺ : « ينزل ربنا عز وجل إلى

وأهل البدع والأهواء بإزاء السنة الصحيحة فريقان :

١ – فريق لا يتورع عن ردها وإنكارها إذا وردت بما يخالف مذهبه بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تفيد إلا الظن ، والواجب في باب الاعتقاد هو اليقين ، وهؤلاء هم المعتزلة والفلاسفة .

٢ – وفريق يثبتها ويعتقد بصحة النقل ولكنه يشتغل بتأويلها كما يشتغل بتأويل آيات الكتاب حتى يخرجها عن معانيها الظاهرة إلى ما يريده من معان بالإلحاد والتحريف ، وهؤلاء هم متأخروا الأشعرية وأكثرهم توسعاً في هذا الباب الغزالي والرازي .

* قوله : (**وما وصف الرسول به إلخ**) : يعني أنه كما وجب الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، كذلك يجب الإيمان بكل ما وصفه به أعلم الخلق بربه وبما يجب له وهو رسوله الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه وآله .

* قوله : (**كذلك**) : أي : إيماناً مثل ذلك الإيمان خالياً من التحريف والتعطيل ومن التكييف والتمثيل بل إثبات لها على الوجه اللائق بعظمة الرب جل شأنه .

* قوله : (**فمن ذلك قوله ﷺ إلخ**) : الكلام على هذا الحديث

السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر

من جهتين .

• (**الأولى**) صحته من جهة النقل وقد ذكر المؤلف رحمه الله أنه متفق عليه . ويقول الذهبي في كتابه : « العلو للعلي الغفار » إن أحاديث النزول متواترة تفيد القطع وعلى هذا فلا مجال لإنكار أو جحود .

• (**الثانية**) ما يفيده هذا الحديث وهو إخباره ﷺ بنزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلخ . ومعنى هذا أن النزول صفة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته ، فهو لا يماثل نزول الخلق كما أن استواءه لا يماثل استواء الخلق .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في تفسير سورة الإخلاص :

« فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج وأنه كلم موسى في الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وأنه استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً لم يلزم من ذلكم أن تكون هذه الأفعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر .

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بالنزول صفة حقيقية لله عز وجل على الكيفية التي يشاء ، فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التى ثبتت في الكتاب والسنة ، ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون ، ويقولون : إن الرسول أخبرنا أنه ينزل ولكنه لم

له ؟ » متفق عليه . وقوله ﷺ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن التائب من أحدكم براحلته » الحديث متفق عليه ، وقوله

يخبرنا كيف ينزل ، وقد علمنا أنه فعال لما يريد ، وأنه على كل شيء قدير .

ولهذا ترى خواص المؤمنين يتعرضون في هذا الوقت الجليل لألطاف ربهم ومواهبه ، فيقومون لعبوديته خاضعين خاشعين داعين متضرعين يرجون منه حصول مطالبهم التي وعدهم بها على لسان رسوله ﷺ .

* قوله : (**لله أشد فرحاً إلخ**) : تتمة هذا الحديث كما في البخاري وغيره : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل بأرض فلاة دوية مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فنزل عنها فنام وراحلته عند رأسه فاستيقظ وقد ذهبت ، فذهب في طلبها فلم يقدر عليها حتى أدركه الموت من العطش فقال والله لأرجعن فلأموتن حيث كان رحلي فرجع فنام فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه فقال : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

وفي هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات أنه صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به ، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته ، فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يحدث عبده التوبة والإنابة إليه ، وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب وقبوله توبته . وإذا كان الفرح في المخلوق على أنواع فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب وقد يكون فرح أشر

وبطر ، فالله عز وجل منزه عن ذلك كله ، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه لا في ذاته ولا في أسبابه ولا في غاياته ، فسببه كمال رحمته وإحسانه التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها ، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين .

وأما تفسير الفرح بلازمه وهو الرضى وتفسير الرضا بإرادة الثواب ، فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه ، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه كما هي في المخلوق – تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم .

* قوله : (**يضحك الله إلى رجلين إلخ**) : يثبت أهل السنة والجماعة الضحك لله عز وجل كما أفاده هذا الحديث وغيره على المعنى الذي يليق به سبحانه والذي لا يشبه ضحك المخلوقين عندما يستخفهم الفرح أو يستفزهم الطرب ، بل هو معنى يحدث في ذاته عند وجود مقتضيه ، وإنما يحدث بمشيئته وحكمته ، فإن الضحك إنما ينشأ في المخلوق عند إدراكه لأمر عجيب يخرج عن نظائره ، وهذه الحالة المذكورة في هذا الحديث ، كذلك فإن تسليط الكافر على قتل المسلم مدعاة في باديء الرأي لسخط الله على هذا الكافر وخذلانه ومعاقبته في الدنيا والآخرة ، فإذا منَّ الله على هذا الكافر بعد ذلك بالتوبة وهداه للدخول في الإسلام وقاتل في سبيل الله حتى يستشهد فيدخل الجنة كان ذلك من الأمور العجيبة حقاً .

وهذا من كمال رحمته وإحسانه وسعة فضله على عباده سبحانه ،

الجنة » متفق عليه ، وقوله : « عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ، ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم

فإن المسلم يقاتل في سبيل الله ويقتله الكافر ، فيكرم الله المسلم بالشهادة ، ثم يمن على ذلك القاتل فيهديه للإسلام والاستشهاد في سبيله فيدخلان الجنة جميعاً .

وأما تأويل ضحكه سبحانه بالرضا أو القبول أو أن الشيء حل عنده بمحل ما يضحك منه ، وليس هناك في الحقيقة ضحك فهو نفي لما أثبته رسول الله ﷺ لربه ولا يلتفت إليه .

* قوله : (**عجب ربنا إلخ**) : هذا الحديث يثبت لله عز وجل صفة العجب وفي معناه قوله عليه الصلاة والسلام : « عجب ربك من شاب ليس له صبوة » وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ بضم التاء على أنها ضمير الرب جل شأنه .

وليس عجبه سبحانه ناشئاً عن خفاء في الأسباب أو جهل بحقائق الأمور كما هو الحال في عجب المخلوقين بل هو معنى يحدث له سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته وعند وجود مقتضيه . وهو الشيء الذي يستحق أن يتعجب منه .

وهذا العجب الذي وصف به الرسول ربه هنا من آثار رحمته وهو من كماله تعالى ، فإذا تأخر الغيث عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم واستولى عليهم اليأس والقنوط وصار نظرهم قاصراً على الأسباب الظاهرة ، وحسبوا أن لا يكون وراءها فرج من القريب المجيب فيعجب الله منهم .

قريب » حديث حسن ، وقوله ﷺ : « لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله » وفي

وهذا محل عجيب حقّاً إذ كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شيء والأسباب لحصولها قد توفرت ، فإن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته ، وكذا الدعاء بحصول الغيث والرجاء في الله من أسبابها وقد جرت عادته سبحانه في خلقه أن الفرج مع الكرب وأن اليسر مع العسر وأن الشدة لا تدوم ، فإذا انضم إلى ذلك قوة التجاء وطمع في فضل الله ، وتضرع إليه ودعاء ، فتح الله عليه من خزائن رحمته ما لا يخطر على البال .

* (**والقنوط**) : مصدر قنط وهو اليأس من رحمة الله ، قال تعالى ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

* قوله : (**وقرب خيره**) أي : فضله ورحمته وقد روي (غيره)[1] والغير اسم من قولك : غير الشيء فتغير ، وفي حديث الاستسقاء : « من يكفر بالله يلق الغير » أي : تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد .

* قوله : (**أزلين قنطين**) : حالان من الضمير المجرور في إليكم ، وأزلين : جمع أزل اسم فاعل من الأزل بمعنى الشدة والضيق ، يقال : أزل الرجل يأزل أزلاً من باب فرح أي صار في ضيق وجدب .

* قوله : (**لا تزال جهنم إلخ**) : في هذا الحديث إثبات الرجل

---

(١) ليس فيما تتبعته من المراجع سوى هذا اللفظ (غيره) بالغين . إسماعيل الأنصاري .

رواية : « عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض فتقول قط قط » ، متفق عليه ، وقوله : « يقول تعالى : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار » متفق عليه ، وقوله : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه وليس بينه

والقدم لله عز وجل ، وهذه الصفة تجري مجرى بقية الصفات فتثبت لله على الوجه اللائق بعظمته سبحانه . والحكمة في وضع رجله سبحانه في النار أنه قد وعد أن يملأها كما في قوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

ولما كان مقتضى رحمته وعدله أن لا يعذب أحداً بغير ذنب ، وكانت النار في غاية العمق والسعة ، حقق وعده تعالى فوضع فيها قدمه ، فحينئذ يتلاقى طرفاها ولا يبقى فيها فضل عن أهلها .

وأما الجنة فإنه يبقى فيها فضل عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وأوسع لهم فينشيء الله لها خلقاً آخرين كما ثبت بذلك الحديث .

* قوله : (**يقول تعالى يا آدم**) إلخ : في هذين الحديثين إثبات القول والنداء والتكليم لله عز وجل ، وقد سبق أن بينا مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك وأنهم يؤمنون بأن هذه صفات أفعال له سبحانه تابعة لمشيئته وحكمته ، فهو : قال ويقول ، ونادى وينادي : وكلم ويكلم ، وأن قوله ونداءه وتكليمه إنما يكون بحروف وأصوات يسمعها من يناديه ويكلمه ، وفي هذا رد على الأشاعرة في قولهم : إن كلامه قديم وأنه بلا حرف ولا صوت .

وقد دل الحديث الثاني على أنه سبحانه سيكلم جميع عباده بلا

وبينه ترجمان » ، وقوله في رقية المريض : « ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض ، كما رحمتك في السماء ، اجعل رحمتك في الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا ، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ » حديث حسن رواه أبو داود وغيره – وقوله :

واسطة ، وهذا تكليم عام ، لأنه تكليم محاسبة فهو يشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ لأن المنفي هنا هو التكليم بما يسمع المكلم ، وهو تكليم خاص ويقابله تكليمه سبحانه لأهل الجنة تكليم محبة ورضوان وإحسان .

* قوله : (**ربنا الله الذي في السماء**) إلخ : الحديث الأول صريح في علوه تعالى وفوقيته فهو كقوله تعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ وقد سبق أن قلنا : إن هذه النصوص ليس المراد منها أن السماء ظرف حاوٍ له سبحانه ، بل (في) إما أن تكون بمعنى على كما قاله كثير من أهل العلم واللغة .

* و(**في**) : تكون بمعنى على في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ لأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ ، وإما أن يكون المراد من السماء جهة العلو ، وعلى الوجهين فهي نص في علوه تعالى على خلقه .

وفي حديث الرقية المذكور توسل إلى الله عز وجل بالثناء عليه بربوبيته وإلاهيته وتقديس اسمه وعلوه على خلقه وعموم أمره الشرعي وأمره القدري ، ثم توسل إليه برحمته التي شملت أهل سمواته جميعاً أن يجعل لأهل الأرض نصيباً منها ، ثم توسل إليه بسؤال مغفرة الحوب وهو

« ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء » حديث صحيح ، وقوله :

الذنب العظيم ، ثم الخطايا التي هي دونه ، ثم توسل إليه بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده وهم الأنبياء وأتباعهم التي كان من آثارها أن غمرهم بنعم الدين والدنيا الظاهرة والباطنة .

فهذه الوسائل المتنوعة إلى الله لا يكاد يرد دعاء من توسل بها ، ولهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذي هو شفاء الله الذي لا يدع مرضاً إلا أزاله ولا تعلق فيه لغير الله .

فهل يفقه هذا عباد القبور من المتوسلين بالذوات والأشخاص والحق والجاه والحرمة ونحو ذلك .

* وأما الحديث الثاني [1] فقد تضمن شهادة الرسول ﷺ بالإيمان للجارية التي اعترفت بعلوه تعالى على خلقه ، فدل ذلك على أن وصف العلو من أعظم أوصاف الباري جل شأنه حيث خصه بالسؤال عنه دون بقية الأوصاف ، ودل أيضاً على أن الإيمان بعلوه المطلق من كل وجه هو من أعظم أصول الإيمان ، فمن أنكره فقد حرم الإيمان الصحيح .

والعجب من هؤلاء الحمقى من المعطلة النفاة زعمهم أنهم أعلم بالله من رسوله ، فينفون عنه الأين بعدما وقع هذا اللفظ بعينه من الرسول مرة سائلاً غيره ، كما في هذا الحديث : ومرة مجيباً لمن سأله بقوله أين كان ربنا .

---

(١) الحديث الثاني حسب ترتيب المتن هو قوله : (والعرش فوق الماء) إلخ وأما حديث الجارية فهو الثالث فليتنبه لذلك .

« والعرش فوق الماء والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه » حديث حسن رواه أبو داود وغيره ، وقوله للجارية : « أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال أعتقها فإنها مؤمنة » رواه مسلم ، وقوله : « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » حديث حسن ، وقوله : « إذا قام

---

* وأما قوله : (**والعرش فوق الماء إلخ**) : ففي الجمع بين الإيمان بعلوه تعالى على عرشه وبإحاطة[1] علمه بالموجودات كلها ، فسبحان من هو عليّ في دنوه ، قريب في علوه .

* قوله : (**أفضل الإيمان أن تعلم**) إلخ : فيه[2] دلالة على أن أفضل الإيمان هو مقام الإحسان والمراقبة ، وهو أن يعبد العبد ربه كأنه يراه ويشاهده ، ويعلم أن الله معه حيث كان ، فلا يتكلم ولا يفعل ولا يخوض في أمر ما إلا والله رقيب مطلع عليه ، قال تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾ .

ولا شك أن هذه المعية إذا استحضرها العبد في كل أحواله فإنه يستحي من الله عز وجل أن يراه حيث نهاه ، أو أن يفتقده حيث أمره فتكون عوناً له على اجتناب ما حرم الله والمسارعة إلى فعل ما أمر به من الطاعات على وجه الكمال ظاهراً وباطناً ، ولاسيما إذا دخل في

---

(١) كذا في الأصل والصواب : (وبين الإيمان بإحاطة) إسماعيل الأنصاري .

(٢) ليس في الأصل لفظ : (فيه) ولكن يقتضيه السياق . إسماعيل الأنصاري .

أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن قبل وجهه ولا عن يمينه ، فإن الله قبل وجهه ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه » متفق عليه ، وقوله ﷺ : « اللهم رب السموات السبع والأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين وأغنني من الفقر »

الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه ، فيخشع قلبه ويستحضر عظمة الله وجلاله ، فتقل حركاته ولا يسيء الأدب مع ربه بالبصق أمامه أو عن يمينه .

* قوله : (**إذا قام أحدكم إلى الصلاة إلخ**) : دل على أن الله عز وجل يكون قبل وجه المصلي :

قال شيخ الإسلام في العقيدة الحموية : إن الحديث حق على ظاهره وهو سبحانه فوق العرش ، وهو قبل وجه المصلي ، بل هذا الوصف يثبت للمخلوق ، فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء أو يناجي الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه ، وكانت أيضاً قبل وجهه .

* قوله : (**اللهم رب السموات إلخ**) : تضمن الحديث إثبات أسمائه تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهي من الأسماء الحسنى ، وقد فسرها النبي ﷺ بما لا يدع مجالاً لقائل ، فهو أعلم الخلق جميعاً

رواية مسلم ، وقوله ﷺ لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً . إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » متفق عليه ، « إنكم سترون ربكم كما

بأسماء ربه وبالمعاني التي تدل عليها ، فلا يصح أن يلتفت إلى قول غيره أيّاً كان .

وفي الحديث أيضاً يعلمنا نبينا صلوات الله وسلامه عليه وآله كيف نثني على ربنا عز وجل قبل السؤال ، فهو يثني عليه بربوبيته العامة التي انتظمت كل شيء ، ثم بربوبيته الخاصة الممثلة في إنزاله هذه الكتب الثلاثة تحمل الهدى والنور إلى عباده ، ثم يعوذ ويعتصم به سبحانه من شر نفسه ومن شر كل ذي شر من خلقه ، ثم يسأله في آخر الحديث أن يقضي عنه دينه وأن يغنيه من فقر .

* قوله : (**أيها الناس اربعوا على أنفسكم**) إلخ : أفاد هذا الحديث قربه سبحانه من عباده ، وأنه ليس بحاجة إلى أن يرفعوا إليه أصواتهم فإنه يعلم السر والنجوى ، وهذا القرب المذكور في الحديث قرب إحاطة وعلم وسمع ورؤية فلا ينافي علوه على خلقه .

هذا الحديث الصحيح المتواتر يشهد لما دلت عليه الآيات السابقة من رؤية المؤمنين لله عز وجل في الجنة وتمتعهم بالنظر إلى وجهه الكريم ، وهذه النصوص من الآيات والأحاديث تدل على أمرين : أولهما : علوه تعالى عن خلقه لأنها صريحة في أنهم يرونه من فوقهم . ثانيهما : أن أعظم أنواع النعيم هو النظر إلى وجه الله الكريم .

ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا » متفق عليه ، إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها

---

* وقوله : (**كما ترون القمر ليلة البدر**) : المراد تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي ؛ يعني أن رؤيتهم لربهم تكون من الظهور والوضوح كرؤية القمر في أكمل حالاته ، وهى كونه بدراً ولا يحجبه سحاب ، ولهذا قال بعد ذلك : (**لا تضامون في رؤيته**) روي بتشديد الميم من التضام بمعنى التزاحم والتلاصق ، والتاء يجوز فيها الضم والفتح ، على أن الأصل تتضامون فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، وروي بتخفيف الميم من الضيم بمعنى الظلم ، يعني لا يلحقكم في رؤيته ضيم ولا غبن .

وفي حثه ﷺ في هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خاصة إشارة إلى أن من حافظ عليهما في جماعة نال هذا النعيم الكامل الذي يضمحل بإزائه كل نعيم ، وهو يدل على تأكيد هاتين الصلاتين كما دل على ذلك الحديث الآخر : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر » متفق عليه .

* قوله : (**إلى أمثال هذه الأحاديث إلخ**) : لما كان ما ذكره المؤلف من الأحاديث ليس هو كل ما ورد في باب الصفات من الأخبار ، نبه على أن أمثال هذه الأحاديث التي ذكرها مما يخبر فيه الرسول ﷺ عن ربه بما يخبر به ، فإن حكمه كذلك وهو وجوب الإيمان بما يتضمنه من أسماء الله وصفاته ، ثم عاد فأكد معتقد أهل السنة والجماعة ، وهو أنهم يؤمنون بما وردت به السنة الصحيحة من صفات كإيمانهم بما أخبر الله

رسول الله ﷺ عن ربه بما يخبر به ، فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم الوسط في فرق الأمة ، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم .

في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

ثم أخبر عن أهل السنة والجماعة بأنهم وسط بين فرق الضلال والزيغ من هذه الأمة ، كما أن هذه الأمة وسط بين الأمم السابقة قال تعالى : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ومعنى وسطاً عدولاً خياراً كما ورد الحديث بذلك .

فهذه الأمة وسط بين الأمم التي تجنح إلى الغلو الضار والأمم التي تميل إلى التفريط المهلك ، فإن من الأمم من غلا في المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق وحقوقه ما جعل ، كالنصارى الذين غلوا في المسيح والرهبان . ومنهم من جفا الأنبياء وأتباعهم حتى قتلهم ورد دعوتهم كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحيى وحاولوا قتل المسيح ورموه بالبهتان ، وأما هذه الأمة فقد آمنت بكل رسول أرسله الله واعتقدت رسالتهم وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التي فضلهم الله بها .

ومن الأمم أيضاً من استحلت كل خبيث وطيب ، ومنها من حرم الطيبات غلوّاً ومجاوزة . وأما هذه الأمة فقد أحل الله لها الطيبات وحرم عليها الخبائث ، إلى غير ذلك من الأمور التي منّ الله على هذه الأمة الكاملة بالتوسط فيها .

« فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة » .

فكذلك أهل السنة والجماعة متوسطون بين فرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم .

* قوله : (**فهم وسط في باب صفات الله إلـخ**) : يعني أن أهـل السنة والجماعة وسط في باب الصفات بين من ينفيها ويعطل الذات العلية عنها ويحرف ما ورد فيها من الآيات والأحاديث عن معانيها الصحيحة إلى ما يعتقده هو من معان بلا دليل صحيح ولا عقل صريح كقولهم : رحمة الله : إرادته الإحسان ، ويده : قدرته ، وعينه : حفظه ورعايته ، واستواؤه على العرش : استيلاؤه ، إلى أمثال ذلك من أنواع النفي والتعطيل التي أوقعهم فيها سوء ظنهم بربهم وتوهمهم أن قيام هذه الصفات به لا يعقل إلا على النحو الموجود في قيامها بالمخلوق .

ولقد أحسن القائل حيث يقول :

وقصارى أمر من أو ل أن ظنوا الظنونا
فيقولون على الرحمن مالا يعلمونا

وإنما سمي أهل التعطيل جهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي رأس الفتنة والضلال وقد توسع في هذا اللفظ حتى أصبح يطلق على كل من نفى شيئاً من الأسماء والصفات ، فهو شامل لجميع فرق النفاة من فلاسفة ومعتزلة وأشعرية وقرامطة باطنية .

فأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء الجهمية النفاة وبين أهل التمثيل المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه ومثلوه بعباده ، وقد رد الله على

« وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم » .

الطائفتين بقوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فهذا يرد على المشبهة ، وقوله : ﴿ وهو السميع البصير ﴾ يرد على المعطلة .

وأما أهل الحق فهم الذين يثبتون الصفات لله تعالى إثباتاً بلا تمثيل ، وينزهونه عن مشابهة المخلوقات تنزيهاً بلا تعطيل ، فجمعوا أحسن ما عند الفريقين ، أعني التنزيه والإثبات ، وتركوا ما أخطأوا وأساءوا فيه من التعطيل والتشبيه .

* قوله : (**وهم وسط إلخ**) : قال الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز ابن مانع في تعليقه على هذه العبارة ما نصه :

اعلم أن الناس اختلفوا في أفعال العباد هل هي مقدورة للرب أم لا ؟ فقال جهم وأتباعه وهم الجبرية : إن ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد وكذلك قال الأشعري وأتباعه : إن المؤثر في المقدور قدرة الرب دون قدرة العبد ، وقال جمهور المعتزلة وهم القدرية ، أي نفاة القدر : إن الرب لا يقدر علي عين مقدور العبد واختلفوا هل يقدر على مثل مقدوره ، فأثبته البصريون كأبي علي وأبي هاشم ، ونفاه الكعبي وأتابعه البغداديون .

وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه ، فالجبرية غلوا في إثبات القدر فنفوا فعل العبد أصلاً . والمعتزلة نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة . وهدى الله

المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، فقالوا : العباد فاعلون والله خالقهم وخالق أفعالهم كما قال تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ وإنما نقلنا هذه العبارة بنصها لأنها تلخيص جيد لمذاهب المتكلمين في القدر وأفعال العباد .

* قوله : (**وفي باب وعيد الله إلخ**) : يعني أن أهل السنة والجماعة وسط في باب الوعيد بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وزعموا أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب وإن لم ينطق به . وسموا بذلك نسبة إلا الإرجاء ، أي التأخير لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان .

ولا شك أن الإرجاء بهذا المعنى كفر يخرج صاحبه عن الملة ، فإنه لا بد في الإيمان من قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان ، فإذا اختل واحد منها لم يكن الرجل مؤمناً .

وأما الإرجاء الذي نسب إلى بعض الأئمة من أهل الكوفة كأبي حنيفة وغيره ، وهو قولهم : إن الأعمال ليست من الإيمان ، ولكنهم مع ذلك يوافقون أهل السنة على أن الله يعذب من يعذب من أهل الكبائر بالنار ، ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها ، وعلى أنه لا بد في الإيمان من نطق باللسان ، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة يستحق تركها الذم والعقاب ، فهذا النوع من الإرجاء ليس كفراً وإن كان قولاً باطلاً مبتدعاً لإخراجهم الأعمال عن الإيمان .

وأما الوعيدية فهم القائلون : بأن الله يجب عليه عقلاً أن يعذب

وغيرهم » ، « وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية » ،

العاصي كما يجب عليه أن يثيب المطيع ، فمن مات على كبيرة ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له ، ومذهبهم باطل مخالف للكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقد استفاضت الأحاديث في خروج عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة .

فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين نفاة الوعيد من المرجئة وبين موجبيه من القدرية ، فمن مات على كبيرة عندهم فأمره مفوض إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه ، كما دلت عليه الآية السابقة ، وإذا عاقبه بها فإنه لا يخلد خلود الكفار بل يخرج من النار ويدخل الجنة .

* قوله : (**وفي باب أسماء الإيمان إلخ**) : كانت مسألة الأسماء والأحكام من أول ما وقع فيه النزاع في الإسلام بين الطوائف المختلفة ، وكان للأحداث السياسية والحروب التي جرت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما في ذلك الحين وما ترتب عليها من ظهور الخوارج والرافضة والقدرية أثر كبير في ذلك النزاع ، والمراد بالأسماء هنا أسماء الدين مثل مؤمن ومسلم وكافر وفاسق إلخ ، والمراد بالأحكام أحكام أصحابها في الدنيا والآخرة .

فالخوارج الحرورية والمعتزلة ذهبوا إلى أنه لا يستحق اسم الإيمان إلا من صدق بجنانه وأقر بلسانه وقام بجميع الواجبات واجتنب جميع الكبائر ، فمرتكب الكبيرة عندهم لا يسمى مؤمناً باتفاق بين الفريقين ،

ولكنهم اختلفوا هل يسمى كافراً أو لا . فالخوارج يسمونه كافراً ويستحلون دمه وماله ، ولهذا كفروا علياً ومعاوية وأصحابهما واستحلوا منهم ما يستحلون من الكفار .

وأما المعتزلة فقالوا : إن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر فهو بمنزلة بين المنزلتين ، وهذا أحد الأصول التي قام عليها مذهب الاعتزال .

واتفق الفريقان أيضاً على أن من مات على كبيرة ولم يتب منها فهو مخلد في النار ، فوقع الاتفاق بينهما في أمرين :

١ – نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة .

٢ – خلوده في النار مع الكفار . ووقع الخلاف أيضاً في موضعين أحدهما : تسميته كافراً . والثاني : استحلال دمه وماله وهو الحكم الدنيوي ، وأما المرجئة فقد سبق بيان مذهبهم ، وهو أنه لا يضر مع الإيمان معصية فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان ولا يستحق دخول النار .

فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين هذين المذهبين فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الإيمان ، قد نقص من إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية فلا ينفون عنه الإيمان أصلاً كالخوارج والمعتزلة ، ولا يقولون : بأنه كامل الإيمان كالمرجئة الجهمية ، وحكمه في الآخرة عندهم أنه قد يعفو الله عز وجل عنه فيدخل الجنة ابتداء أو يعذبه بقدر معصيته ثم يخرجه ويدخله الجنة كما سبق ، وهذا الحكم أيضاً وسط بين

من يقول بخلوده في النار وبين من يقول : إنه لا يستحق على المعصية عقاباً .

* قوله : (**وفي أصحاب رسول الله إلخ**) : المعروف أن الرافضة قبحهم الله يسبون الصحابة رضي الله عنهم ويلعنونهم وربما كفروهم أو كفروا بعضهم ، والغالبية منهم مع سبهم لكثير من الصحابة والخلفاء يغلون في علي وأولاده ويعتقدون فيهم الإلـٰهية ، وقد ظهر هؤلاء في حياة علي رضي الله عنه بزعامة عبد الله بن سبأ الذي كان يهودياً وأسلم وأراد أن يكيد للإسلام وأهله كما كاد اليهود من قبل للنصرانية وأفسدوها على أهلها ، وقد حرقهم علي بالنار لإطفاء فتنتهم ، وروي عنه في ذلك قوله :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً   أججت ناري ودعوت قنبرا

وأما الخوارج فقد قابلوا هؤلاء الروافض فكفروا عليّاً ومعاوية ومن معهما من الصحابة وقاتلوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم .

وأما أهل السنة والجماعة فكانوا وسطاً بين غلو هؤلاء وتقصير أولئك وهداهم الله إلى الاعتراف بفضل أصحاب نبيهم وأنهم أكمل هذه الأمة إيماناً وإسلاماً وعلماً وحكمة ، ولكنهم لم يغلوا فيهم ولم يعتقدوا عصمتهم ، بل قاموا بحقوقهم وأحبوهم لعظيم سابقتهم وحسن بلائهم فى نصرة الإسلام وجهادهم مع رسول الله ﷺ .

(فصل)

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن[1] على خلقه ، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون كما جمع بين ذلك في قوله : ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

---

* قوله : (**وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان إلخ**) : صرح المؤلف هنا بمسألة علو الله تعالى واستوائه على عرشه بائناً من خلقه كما أخبر الله عن ذلك في كتابه وكما تواتر الخبر بذلك عن رسوله وكما أجمع عليه سلف الأمة الذين هم أكملها علماً وإيماناً ، مؤكداً بذلك ما سبق أن ذكره في هذا الصدد ومشدداً النكير على من أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الأشاعرة . ثم بين أن استواءه على عرشه لا ينافي معيته وقربه من خلقه ، فإن المعية ليس معناها الاختلاط والمجاورة الحسية ، وضرب لذلك مثلاً بالقمر الذي هو موضوع في السماء وهو

---

(١) كذا في الأصل ونص ما وجدناه من عدة نسخ من العقيدة الواسطية (على) بدل لفظ (بائن) إسماعيل الأنصاري .

وليس معنى قوله : « وهو معكم » أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع في السماء ، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان .

وهو سبحانه فوق عرشه رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله - من أنه فوق العرش وأنه معنا - حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله : ﴿ في السماء ﴾ أن السماء تظله أو تقله ، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان ، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض وهو يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره .

مع المسافر وغيره أينما كان بظهوره واتصال نوره ، فإذا جاز هذا بالنسبة للقمر وهو من أصغر مخلوقات الله أفلا يجوز بالنسبة إلى اللطيف الخبير الذى أحاط بعباده علماً وقدرة والذي هو شهيد مطلع عليهم يسمعهم ويراهم ويعلم سرهم ونجواهم ، بل العالم كله سمواته وأرضه من العرش إلى الفرش كله بين يديه سبحانه كأنه بندقة في يد أحدنا ، أفلا يجوز لمن هذا شأنه أن يقال إنه مع خلقه مع كونه عالياً عليهم بائناً منهم فوق عرشه ؟ بلى يجب الإيمان بكل من علوه تعالى ومعيته ، واعتقاده أن ذلك كله حق على حقيقته من غير أن يساء فهم ذلك أو يحمل على

(فصل)

وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب كما جمع بين ذلك في قوله : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ الآية – وقوله ﷺ : « إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته ، لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو عليّ في دنوه قريب في علوه .

معان فاسدة كأن يفهم من قوله : (**وهو معكم**) معية الاختلاط والامتزاج كما يزعمه الحلولية ، أو يفهم من قوله : (**في السماء**) أن السماء ظرف حاو له محيط به . كيف وقد وسع كرسيه السموات والأرض جميعاً ؟ وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فسبحان من لا يبلغه وهم الواهمين ، ولا يدركه أفهام العالمين .

* قوله : (**وقد دخل في ذلك الإيمان إلخ**) : يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه من أنه قريب مجيب ، فهو سبحانه قريب ممن يدعوه ويناجيه ، يسمع دعاءه ونجواه ويجيب دعاءه متى شاء وكيف شاء فهو تعالى قريب قرب العلم والإحاطة كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ .

وبهذا يتبين أنه لا منافاة أصلاً بين ما ذكر في الكتاب والسنة من قربه تعالى ومعيته وبين ما فيهما من علوه تعالى وفوقيته ، فهذه كلها نعوت له على ما يليق به سبحانه ليس كمثله شيء منها .

ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأن الله تكلم به حقيقة ، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة ، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً وهو كلام الله حروفه ومعانيه ، ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف .

---

* قوله : (**ومن الإيمان بالله وكتبه إلخ**) : جعل المصنف الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلاً في الإيمان بالله لأنه صفة من صفاته فلا يتم الإيمان به سبحان إلا بها ، إذ الكلام لا يكون إلا صفة للمتكلم والله سبحانه موصوف بأنه متكلم بما شاء متى شاء ، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم بمعنى أن نوع كلامه قديم وإن كانت آحاده لا تزال تقع شيئاً بعد شيء بحسب حكمته .

وقد قلنا فيما سبق : إن الإضافة في قولنا : « القرآن كلام الله » هي من إضافة الصفة للموصوف فتفيد أن القرآن صفة الرب سبحانه وأنه تكلم به حقيقة بألفالظه ومعانيه بصوت نفسه فمن زعم أن القرآن مخلوق من المعتزلة فقد أعظم الفرية على الله ونفى كلام الله عن الله وصفاً وجعله وصفاً لمخلوق وكان أيضاً متجنياً على اللغة فليس فيها متكلم بمعنى خالق للكلام . ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا حكاية عن كلام الله

كما تقوله الكلابية أو أنه عبارة عنه كما تقوله الأشعرية ، فقد قال بنصف قول المعتزلة حيث فرق بين الألفاظ والمعاني ، فجعل الألفاظ مخلوقة والمعاني عبارة عن الصفة القديمة ، كما أنه ضاهى النصارى في قولهم بحلول اللاهوت وهو الكلمة في الناسوت وهو جسد عيسى عليه السلام ، إذا قال بحلول المعاني التي هي الصفة القديمة في هذه الألفاظ المخلوقة ، فجعل الألفاظ ناسوتاً لها .

والقرآن كلام الله حيث تصرف ، فمهما كتبناه في المصاحف أو تلوناه بالألسنة لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، لأن الكلام كما قال المصنف إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً .

وأما معنى قول السلف : (منه بدا وإليه يعود) فهو من البدء يعني أن الله هو الذي تكلم به ابتداءً لم يبتدأ من غيره ، ويحتمل أن يكون من البدو بمعنى الظهور ، يعني أنه هو الذي تكلم به وظهر منه لم يظهر من غيره ، ومعنى إليه يعود أي يرجع إليه وصفاً ، لأنه وصفه القائم به ، وقيل : معناه يعود إليه في آخر الزمان حين يرفع من المصاحف والصدور ، كما ورد في أشراط الساعة .

وأما كون الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلاً في الإيمان بالكتب فإن الإيمان بها إيماناً صحيحاً يقتضي إيمان العبد بأن الله تكلم بها بألفاظها ومعانيها ، وأنها جميعاً كلامه هو لا كلام غيره ، فهو الذي تكلم بالتوراة بالعبرانية ، وبالإنجيل بالسريانية ، وبالقرآن بلسان عربي مبين .

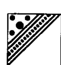
وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله ؛ الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحواً ليس بها سحاب ، وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته ، يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة ، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله تعالى .

---

* قوله : (**وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه إلخ**) : تقدم الكلام على رؤية المؤمنين لربهم عز وجل في الجنة كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث الصريحة ، فلا حاجة بنا إلى إعادة الكلام فيها .

* غير أن قوله : (**يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة**) : قد يوهم أن هذه الرؤية أيضاً خاصة بالمؤمنين ولكن الحق أنها عامة لجميع أهل الموقف حين يجيء الرب لفصل القضاء بينهم كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ الآية .

* (**والعرصات**) : جمع عرصة وهي كل موضع واسع لا بناء فيه .



(فصل)

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه . فأما الفتنة فإن الناس يمتحنون في قبورهم ، فيقال للرجل : من ربك وما دينك وما نبيك ؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فيقول المؤمن : ربي الله والإسلام ديني ومحمد ﷺ نبيي . وأما المرتاب فيقول : هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق – ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح إلى الأجساد .

---

* قوله : (**ومن الإيمان باليوم الآخر إلخ**) : إذا كان الإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة التي يقوم عليها الإيمان فإن الإيمان به إيماناً تاماً كلاماً لا يتحقق إلا إذا آمن العبد بكل ما أخبر به النبي ﷺ من أمور الغيب التي تكون بعد الموت ، والضابط في ذلك أنها أمور ممكنة أخبر بها الصادق صلوات الله عليه وسلامه وآله ، وكل ممكن أخبر به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر ، فإن هذه الأمور لا تستفاد إلا من خبر الرسول – فأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كله .

وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة والمعتزلة فينكرون هذه

وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون . فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً وتدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق ، فتنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد .

الأمور من سؤال القبر ومن نعيم القبر وعذابه والصراط والميزان وغير ذلك بدعوى أنها لم تثبت بالعقل ، والعقل عندهم هو الحاكم الأول الذي لا يجوز الإيمان بشيء إلا عن طريقه ، وهم يردون الأحاديث الواردة في هذه الأمور بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تقبل في باب الاعتقاد ، وأما الآيات فيأولونها بما يصرفها عن معانيها . والإضافة في قوله : (**بفتنة القبر**) على معنى في أي بالفتنة التي تكون في القبر ، وأصل الفتنة وضع الذهب ونحوه على النار لتخليصه من الأوضار والعناصر الغريبة ، ثم استعملت فى الاختبار والامتحان ، وأما عذاب القبر ونعيمه فيدل عليه قوله تعالى في حق آل فرعون : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ وقوله سبحانه عن قوم نوح : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

* (**والمرزبة**) بالتخفيف : المطرقة الكبيرة ، ويقال لها أيضاً إرزبة بالهمزة والتشديد .

* قوله : (**وتقوم القيامة إلخ**) : يعني : القيامة الكبرى وهذا الوصف للتخصيص احترز به عن القيامة الصغرى التي تكون عند الموت كما في الخبر : (من مات فقد قامت قيامته) وذلك أن الله عز وجل

فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون وتنشر الدواوين ، وهي صحائف الأعمال – فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو

إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا أمر إسرافيل عليه السلام أن ينفخ في الصور النفخة الأولى فيصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وتصبح الأرض صعيداً جرزاً ، والجبال كثيباً مهيلاً ، ويحدث كل ما أخبر الله به في كتابه لا سيما في سورتي التكوير والانفطار ، وهذا هو آخر أيام الدنيا ، ثم يأمر الله السماء فتمطر مطراً كمني الرجال أربعين يوماً فينبت منه الناس في قبورهم من عجب أذنابهم وكل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب حتى إذا تم خلقهم وتركيبهم أمر الله إسرافيل بأن ينفخ في الصور النفخة الثانية فيقوم الناس من الأجداث أحياء فيقول الكفار والمنافقون حينئذ : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ ويقول المؤمنون : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ ثم تحشرهم الملائكة إلى الموقف حفاة غير منتعلين عراة غير مكتسين غرلاً غير مختتنين جمع أغرل وهو الأقلف والغرلة القلفة ، وأول من يكتسي يوم القيامة إبراهيم كما في الحديث – وهناك في الموقف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق ويلجمهم العرق ، فمنهم من يبلغ كعبيه ، ومنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من يبلغ ثدييه ، منهم من يبلغ ترقوته كل على قدر عمله ، ويكون أناس في ظل الله عز وجل ، فإذا اشتد بهم الأمر وعظم الكرب استشفعوا إلى الله عز وجل بالرسل والأنبياء أن ينقذوهم مما هم فيه ، وكل رسول يحيلهم على من بعده حتى يأتوا نبينا ﷺ فيقول : « أنا لها » ويشفع فيهم فينصرفون إلى فصل القضاء وهناك تنصب الموازين فتوزن بها أعمال

من وراء ظهره ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .

العباد وهي موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان ويقلب الله أعمال العباد (وهي أعراض) أجساماً لها ثقل فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة كما قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

ثم تنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره[1] فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً ويقول : يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه . قال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

* وأما قوله تعالى : (**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه**) فقد قال الراغب : أي عمله الذي طار عنه من خير وشر ولكن الظاهر أن المراد

---

(١) دعوى (أن الذي يؤتى كتابه من وراء ظهره غير الذي يؤتاه بشماله تنافي ما قرره ابن كثير من تفسيره حيث قال ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ أي بشماله من وراء ظهره يثني يده إلى وراءه ويعطى كتابه بها وكذلك . ولو أتى المؤلف بالآيات على ترتيبها في المصحف لأصاب ولسلم مما وقع فيه) . إسماعيل الأنصاري .

ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه ، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة ، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها .

بالطائر هنا نصيبه في هذه الدنيا وما كتب له فيها من رزق وعمل كما في قوله تعالى : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ يعني ما كتب عليهم فيه .

* قوله : (**ويحاسب الله الخلائق**) إلخ : المراد بتلك المحاسبة تذكيرهم وإنباؤهم بما قدموه من خير وشر أحصاه الله ونسوه قال تعالى : ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ وفي الحديث الصحيح : « من نوقش الحساب عذب » فقالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله أوليس الله يقول : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ ؟ فقال : « إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك » .

* وأما قوله : (**ويخلو بعبده المؤمن**) : فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الله عز وجل يدني منه عبده المؤمن فيضع عليه كنفه ويحاسبه فيما بينه وبينه ويقرره بذنوبه ، فيقول : ألم تفعل كذا يوم كذا ، ألم تفعل كذا يوم كذا حتى إذا قرره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك قال له ، سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم .

* وأما قوله : (**فإنه لا حسنات لهم**) يعني : الكفار لقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ وقوله : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا

وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، آنيته عدد نجوم السماء ، طوله شهر وعرضه شهر ، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً والصراط منصوب على متن جهنم وهو الجسر الذي بين الجنة والنار يمر الناس على قدر أعمالهم فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم من يمر كركاب الإبل ، ومنهم

يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾ والصحيح أن[1] أعمال الخير التي يعلمها الكافر يجازى بها في الدنيا فقط حتى إذا جاء يوم القيامة وجد صحيفة حسناته بيضاء ، وقيل يخفف بها عنه من عذاب غير الكفر .

* وأما قوله : (**في عرصات القيامة**) : فإن الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً فمن أنكره فأخلق به أن يحال بينه وبين وروده يوم العطش الأكبر وقد ورد فى أحاديث ، إن لكل نبي حوضاً ولكن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

* قوله : (**والصراط منصوب إلخ**) : أصل الصراط الطريق الواسع قيل سمى بذلك لأنه يسترط السابلة ، أي يبتلعهم إذا سلكوه ، وقد يستعمل في الطريق المعنوي كما في قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ .

---

(١) ليس في الأصل لفظ « أن » ولكن يقتضيه السياق . إسماعيل الأنصاري .

من يعدو عدواً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم من يخطف خطفاً ويلقى في جهنم فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم فمن مر على الصراط دخل الجنة ، فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة .

وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته ، وله ﷺ في القيامة ثلاث شفعات :

والصراط الأخروي الذي هو الجسر الممدود على ظهر جهنم بين الجنة والنار حق لا ريب فيه لورود خبر الصادق به ، ومن استقام على صراط الله الذي هو دينه الحق في الدنيا استقام على هذا الصراط فى الآخرة وقد ورد في وصفه أنه أرق من الشعرة وأحد من السيف .

* قوله : (**وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ**) يعني : أول من يحرك حلقها طالباً أن يفتح له بابها كما قال عليه السلام : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فأدخلها ويدخلها معي فقراء أمتي » يعني : بعد دخول الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكون فقراء هذه الأمة أول الناس دخولاً الجنة .

* وأما قوله : (**وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات**) : فأصل الشفاعة من قولنا : شفع كذا بكذا إذا ضمه إليه ، وسمى الشافع شافعاً لأنه يضم طلبه ورجاءه إلى طلب المشفوع له .

أما الشفاعة الأولى : فيشفع في أهل الموقف حتى يقضي بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء ؛ آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه .

والشفاعة من الأمور التي ثبتت بالكتاب والسنة ، وأحاديثها متواترة ، قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ فنفي الشفاعة بلا إذن إثبات للشفاعة من بعد الإذن ، قال تعالى عن الملائكة : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ فبين الله الشفاعة الصحيحة وهي التي تكون بإذنه ولمن يرتضى قوله وعمله .

وأما ما يتمسك به الخوارج والمعتزلة في نفي الشفاعة من مثل قوله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ ، ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة – فما لنا من شافعين ﴾ إلخ . فإن الشفاعة المنفية هنا هي الشفاعة في أهل الشرك . وكذلك الشفاعة الشركية التي يثبتها المشركون لأصنامهم ويثبتها النصارى للمسيح والرهبان ، وهي التي تكون بغير إذن الله ورضاه .

* وأما قوله : (**أما الشفاعة الأولى فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم**) فهذه هي الشفاعة العظمى وهي المقام المحمود الذي يغبطه به النبيون والذي وعده الله أن يبعثه إياه بقوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ يعنى يحمده عليه أهل الموقف جميعاً وقد أمرنا نبينا ﷺ إذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً

وأما الشفاعة الثانية : فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، وهاتان الشفاعتان خاصتان له .

وأما الشفاعة الثالثة : فيشفع فيمن استحق النار ، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم ، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها ، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها . ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة بل بفضله ورحمته ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا ، فينشيء الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة .

محموداً الذي وعدته » .

* وأما قوله : (**وأما الشفاعة الثانية فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة**) يعني : أنهم وقد استحقوا دخول الجنة لا يؤذن لهم بدخولها إلا بعد شفاعته .

* وأما قوله : (**وهاتان الشفاعتان خاصتان له**) يعني الشفاعة في أهل الموقف والشفاعة في أهل الجنة أن يدخلوها ، وتنضم إليهما ثالثة وهي شفاعته في تخفيف العذاب عن بعض المشركين كما في شفاعته لعمه أبي طالب فيكون في ضحضاح من نار . كما ورد بذلك الحديث .

* وأما قوله : (**وأما الشفاعة الثالثة فيشفع في من استحق النار**) : وهذه هي الشفاعة التي ينكرها الخوارج والمعتزلة ، فإن مذهبهم أن من استحق النار لا بد أن يدخلها ، ومن دخلها لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغيرها والأحاديث المستفيضة المتواترة ترد على زعمهم وتبطله .

وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء . وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يشفي ويكفي فمن ابتغاه وجده .

وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين .

---

* وأما قوله : (**وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب إلخ**) : فاعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع ، وقد نبه الله العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ فإنه لا يليق في حكمة الحكيم أن يترك الناس سدى مهملين ، لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون ، كما لا يليق بعدله وحكمته أن يسوي بين المؤمن والكافر والبر والفاجر كما قال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ فإن العقول الصحيحة تأبى ذلك وتنكره أشد الإنكار .

وكذلك نبههم الله على ذلك بما وقعه من أيامه في الدنيا من إكرام الطائعين ، وخذلان الطاغين ، وأما تفاصيل الأجزية ومقاديرها فلا يدرك إلا بالسمع ، والنقول الصحيحة عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

والإيمان بالقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى أحد الأركان

فالدرجة الأولى الإيمان بأن الله تعالى عليم بالخلق وهم عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب الله

الستة التي يدور عليها فلك الإيمان كما دل عليه حديث جبريل وغيره وكما دلت عليه الآيات الصريحة : كتاب الله عز وجل .

وقد ذكر المؤلف هنا أن الإيمان بالقدر على درجتين وأن كلا منهما تتضمن شيئين ؛ فالدرجة الأولى تتضمن :

● أولاً : الإيمان بعلمه القديم المحيط بجميع الأشياء وأنه تعالى علم بهذا العلم القديم الموصوف به أزلاً وأبداً كل ما سيعمله الخلق فيما لا يزال وعلم به جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال . فكل ما يوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث فهو مطابق لما علمه الله عز وجل أزلاً .

● ثانياً : أن الله كتب ذلك كله وسجله في اللوح المحفوظ ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق وأصناف الموجودات وما يتبع ذلك من الأحوال والأوصاف والأفعال ودقيق الأمور وجليلها قد أمر القلم بكتابته كما قال ﷺ : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » ، وكما قال في الحديث الذي ذكره المؤلف : « أن[1] أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » .

---

(١) ليس في نص الواسطية ذكر لفظ (أن) أول رواية هذا الحديث التي ذكرها ثم إن قول المؤلف : (وأول) هنا بالنصب على الظرفية يتنافى مع وجود (أن) أولها إذ لو كان موجوداً لكان نصب (أول) به لا على الظرفية . إسماعيل الأنصاري .

في اللوح المحفوظ مقادير الخلق فأول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال ما أكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ ، وقال : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ ، وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلاً فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء ، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات فيقال له اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ونحو ذلك فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ومنكروه اليوم قليل .

(وأول) هنا : بالنصب على الظرفية ، والعامل فيه قال أي له ذلك أول ما خلقه وقد روى بالرفع على أنه مبتدأ خبره القلم ، ولهذا اختلف العلماء في العرش والقلم أيهما خلق أولاً . وحكى العلامة ابن القيم في ذلك قولين واختار أن العرش مخلوق قبل القلم ، قال في النونية :

والناس مختلفون في القلم الذي
كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده
قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه
وقت الكتابة كان ذا أركان

وأما الدرجة الثانية : فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون في ملكه مالا يريد . وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه . ومع ذلك فقد أمر العباد طاعته وطاعة رسله ونهاهم عن

وكتابة القلم الشريف تعقبت

إيجاده من غير فصل زمان

وإذا كان القلم قد جرى بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة بكل ما يقع من كائنات وأحداث فهو مطابق لما كتب فيه ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

وهذا التقدير التابع للعلم القديم تارة يكون جملة كما في اللوح المحفوظ فإن فيه مقادير كل شيء ، ويكون في مواضع تفصيلاً يخص كل فرد كما في الكلمات الأربع التي يؤمر الملك بكتابتها عند نفخ الروح في الجنين يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ، فهذا تقدير خاص وهذا التقدير السابق على وجود الأشياء قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً مثل معبد الجهني وغيلان الدمشقي ، وكانوا يقولون : إن الأمر أنف . و منكر هذه الدرجة من القدر كافر لأنه أنكر معلوماً من الدين بالضرورة وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع .

* قوله : (**وأما الدرجة الثانية من القدر**) إلخ : فهي تتضمن شيئين أيضاً :

معصيته . وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد .

والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم والعبد هو مؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وإرادتهم كما قال تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾.

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها .

● أولهما : الإيمان بعموم مشيئته تعالى وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لايقع في ملكه مالا يريد وأن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي واقعة بتلك المشيئة العامة التي لا يخرج عنها كائن سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا .

● وثانيهما : الإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدرة الله تعالى وأنها مخلوقة له لا خالق لها سواه ، لا فرق في ذلك بين أفعال العباد وغيرها كما قال تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

ويجب الإيمان بالأمر الشرعي ، وأن الله تعالى كلف العباد فأمرهم بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ولا منافاة أصلاً بين ما ثبت

من عموم مشيئته سبحانه لجميع الأشياء وبين تكليفه العباد بما شاء من أمر ونهي ، فإن تلك المشيئة لا تنافي حرية العبد واختياره للفعل ولهذا جمع الله بين المشيئتين بقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

كما أنه لا تلازم بين تلك المشيئة وبين الأمر الشرعي المتعلق بما يحبه الله ويرضاه ، فقد يشاء الله ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه ؛ (فالأول) : كمشيئته وجود إبليس وجنوده ، (والثاني) : كمحبة إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء وبين كون العبد فاعلاً لفعله ، فالعبد هو الذي يوصف بفعله فهو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم ، والله خالقه وخالق فعله لأنه هو الذي خلق فيه القدرة والإرادة اللتين بهما يفعل .

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي غفر الله له وأجزل مثوبته :

إن العبد إذا صلى وصام وفعل الخير أو عمل شيئاً من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح ، وذلك العمل السيء . وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل وكان هذا هو الواقع الذي نص الله عليه في كتابه ونص عليه رسوله حيث أضاف الأعمال صالحها

....

وسيئها إلى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها وأنهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة ومثابون ، وملومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها .

فقد تبين واتضح بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم وأنهم إذا شاءوا فعلوا وإذا شاءوا تركوا ، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحساً وشرعاً ومشاهدة .

ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة فى القدر وكيف تشملها المشيئة ؟ فيقال : بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها ؟ فيقال : بقدرتهم وإرادتهم ، هذا يعترف به كل أحد ، فيقال : ومن خلق قدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم ؟ فالجواب الذي يعترف به كل أحد : أن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم ، والذي خلق ما تقع به الأفعال هو الخالق للأفعال فهذا هو الذي يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار ، ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ : « أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة » وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوا لأنفسهم . اهـ .

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في القدر وأفعال العباد ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها وأن مشيئته تعالى عامة

شاملة لجميع الكائنات فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقاً لما علمه منها بعلمه القديم ، ولما كتبه وقدره في اللوح المحفوظ وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض اختيارهم وأنهم لهذا يستحقون عليها الجزاء إما بالمدح والمثوبة وإما بالذم والعقوبة وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلاً لا ينافي نسبتها إلى الله إيجاداً وخلقاً لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها .

وضل في القدر طائفتان كما تقدم :

● (الطائفة الأولى) : القدرية نفاة القدر الذين هم مجوس هذه الأمة كما ورد ذلك في بعض الأحاديث مرفوعاً وموقوفاً وهؤلاء ضلوا بالتفريط وإنكار القدر وزعموا أنه لا يمكن الجمع بين ما هو ثابت بالضرورة من اختيار العبد في فعله ومسئوليته عنه ، وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى ومشيئته لأن ذلك العموم في زعمهم إبطال لمسئولية العبد عن فعله وهدم للتكاليف فرجحوا جانب الأمر والنهي وخصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا أفعال العباد وأثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وإرادته ، فأثبتوا خالقين غير الله ولهذا سموا مجوس هذه الأمة ، لأن المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والأشياء المؤذية ، فجعلوه خالقاً مع الله ، فكذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع الله .

● (والطائفة الثانية) : يقال لها الجبرية وهؤلاء غلوا في إثبات

(فصل)

ومن أصول أهل السنة والجماعة لا أن الدين والإيمان قول وعمل قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهم مع ذلك لا

القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة بل هو في زعمهم لا حرية له ولا اختيار ولا فعل كالريشة في مهب الرياح ، وإنما تسند الأفعال إليه مجازاً فيقال : صلى وصام وقتل وسرق كما يقال : طلعت الشمس وجرت الريح ونزل المطر . فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم ، واتهموه بالعبث في تكليف العباد وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي ألا ساء ما يحكمون .

سبق أن ذكرنا في مسألة الأسماء والأحكام أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وأن هذه الثلاثة داخلة في مسمى الإيمان المطلق . فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه ، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق إلا مع جمع ذلك كله ولم ينقص منه شيئاً .

ولما كانت الأعمال والأقوال داخلة في مسمى الإيمان كان الإيمان قابلاً للزيادة والنقص ، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة وكما هو ظاهر مشاهد من تفاوت المؤمنين في عقائدهم وأعمال قلوبهم وأعمال جوارحهم .

....

ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصه أن الله قسم المؤمنين ثلاث طبقات فقال سبحانه : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فالسابقون بالخيرات هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وهؤلاء هم المقربون . والمقتصدون هم الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات . والظالمون لأنفسهم هم الذين اجترأوا على بعض المحرمات وقصروا ببعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم .

ومن وجوه زيادته ونقصه كذلك أن المؤمنين متفاوتون في علوم الإيمان فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير فازداد به إيمانه وتم يقينه ومنهم من هو دون ذلك حتى يبلغ الحال ببعضهم أن لا يكون معه إلا إيمان إجمالي لم يتيسر له من التفاصيل شيء ، وهو مع ذلك مؤمن . وكذلك هم متفاوتون في كثير من أعمال القلوب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها .

وأما من ذهب إلى أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب وأنه غير قابل للزيادة أو النقص كما يروى عن أبي حنيفة وغيره فهو محجوج بما ذكرنا من الأدلة قال عليه السلام : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » ومع أن الإيمان المطلق مركب من الأقوال والأعمال والاعتقادات فهي ليست كلها بدرجة واحدة ، بل العقائد أصل في الإيمان فمن أنكر شيئاً مما يجب اعتقاده

يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه : ﴿ فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ﴾ ، وقال : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ .

﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ ، ولا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله :

في الله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة الزنا والقتل إلخ فهو كافر قد خرج من الإيمان بهذا الإنكار .

وأما الفاسق الملي الذي يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها فأهل السنة والجماعة لا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة والخوارج بل هو عندهم مؤمن ناقص الإيمان قد نقص من إيمانه بقدر معصيته أو هو مؤمن فاسق فلا يعطونه اسم الإيمان المطلق ولا يسلبونه مطلق الإيمان .

وأدلة الكتاب والسنة دالة على ما ذكره المؤلف رحمه الله من ثبوت مطلق الإيمان مع المعصية قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ فناداهم باسم الإيمان مع وجود المعصية وهي موالاة الكفار منهم إلخ .

﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ ، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ وقوله ﷺ : « لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » .

ونقول هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم .

● (فائدة) الإيمـان والإسـلام الشرعيان متلازمان في الوجـود فلا يوجد أحدهما بدون الآخر بل كلما وجد إيمان صحيح معتد به وجد معه إسلام وكذلك العكس ولهذا قد يستغنى بذكر أحدهما عن الآخر لأن أحدهما إذا أفرد بالذكر دخل فيه الآخر وأما إذا ذكرا معاً مقترنين أريد بالإيمان التصديق والاعتقاد وأريد بالإسلام الانقياد الظاهري من الإقرار باللسان وعمل الجوارح . ولكن هذا بالنسبة إلى مطلق الإيمان ، أما الإيمان المطلق فهو أخص مطلقاً من الإسلام .وقد يوجد الإسلام بدونه كما في قوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ فأخبر بإسلامهم مع نفي الإيمان عنهم . وفي حديث جبريل ذكر المراتب الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان فدل على أن كلاً منها أخص مما قبله .

(فصل)

ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في قوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ ، وطاعة النبي ﷺ في قوله : « لا تسبوا أصحابى فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة

● يقول المؤلف : إن من أصول أهل السنة والجماعة التي فارقوا بها من عداهم من أهل الزيغ والضلال أنهم لا يزرون بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا يطعنون عليه ولا يحملون له حقداً ولا بغضاً ولا احتقاراً فقلوبهم وألسنتهم من ذلك كله براء ولا يقولون فيهم إلا ما حكاه الله عنهم بقوله : (**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان**) الآية . فهذا الدعاء الصادر ممن جاء بعدهم ممن اتبعوهم بإحسان يدل على كمال محبتهم لأصحاب رسول الله وثنائهم عليهم وهم أهل لذلك الحب والتكريم لفضلهم وسبقهم وعظيم سابقتهم واختصاصهم بالرسول ﷺ ولإحسانهم إلى جميع الأمة لأنهم هم المبلغون لهم جميع ما جاء به نبيهم فما وصل لأحد علم ولا خبر إلا بواسطتهم وهم يوقرونهم أيضاً طاعة للنبي ﷺ حيث نهى عن سبهم والغض منهم ، وبين أن العمل القليل

والإجماع من فضائلهم ومراتبهم ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا

من أحد أصحابه يفضل العمل الكثير من غيرهم وذلك لكمال إخلاصهم وصادق إيمانهم[1].

* وأما قوله : (**ويفضلون من أنفق من قبل الفتح – وهو صلح الحديبية – وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل**) فلورود النص القرآني بذلك ، قال تعالى في سورة الحديد : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾ ، وأما تفسير الفتح بصلح الحديبية فذلك هو المشهور ، وقد صح أن سورة الفتح نزلت عقيبه . وسمي هذا الصلح فتحاً لما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى في عزة الإسلام وقوته وانتشاره ودخول الناس فيه .

* وأما قوله : (**ويقدمون المهاجرين على الأنصار**) : فلأن المهاجرين جمعوا الوصفين النصرة والهجرة ، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين ، وقد جاء القرآن بتقديم المهاجرين على الأنصار في سورة التوبة والحشر ، وهذا التفضيل إنما هو للجملة على الجملة فلا ينافي أن في الأنصار من هو أفضل من بعض المهاجرين .

وقد روي عن أبي بكر أنه قال في خطبته يوم السقيفة : (نحن

---

(١) شرفهم بصحبة النبي (ﷺ) . إسماعيل الأنصاري .

ثلاثمائة وبضعة عشر : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي ﷺ . بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة .

المهاجرون وأول الناس إسلاماً أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء) .

* وأما قوله : (**ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر إلخ**) : فقد ورد أن عمر رضي الله عنه لما أراد قتل حاطب بن أبي بلتعة وكان قد شهد بدراً لكتابته كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بمسير الرسول ﷺ فقال له الرسول : « وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

* وأما قوله : (**وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة إلخ**) : فلإخباره ﷺ بذلك ، ولقوله تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ الآية . فهذا الرضى مانع من إرادة تعذيبهم ومستلزم لإكرامهم ومثوبتهم .

* وأما قوله : (**ويشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول ﷺ كالعشرة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة**) : أما العشرة فهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح ، وأما غيرهم فكثابت بن قيس وعكاشة بن محصن وعبد الله بن سلام وكل

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي رضي الله عنهم

من ورد الخبر الصحيح بأنه من أهل الجنة .

* وأما قوله : (**ويؤمنون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب أو غيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر**) : فقد ورد أن علياً رضي الله عنه قال ذلك على منبر الكوفة وسمعه منه الجم الغفير وكان يقول : (ما مات رسول الله ﷺ حتى علمنا أن أفضلنا بعده أبو بكر ، وما مات أبو بكر حتى علمنا أن أفضلنا بعده عمر) .

* وأما قوله : (**ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي إلخ**) : فمذهب جمهور أهل السنة أن ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة وهم لهذا يفضلون عثمان على عليّ محتجين بتقديم الصحابة عثمان في البيعة على عليّ ، وبعض أهل السنة يفضل علياً لأنه يرى أن ما ورد من الآثار في مزايا عليّ ومناقبه أكثر . وبعضهم يتوقف في ذلك ، وعلى كل حال فمسألة التفضيل ليست كما قال المؤلف من مسائل الأصول التي يضلل فيها المخالف وإنما هي مسألة فرعية يتسع لها الخلاف ، وأما مسألة الخلافة فيجب الاعتقاد بأن خلافة عثمان كانت صحيحة لأنها كانت بمشورة من الستة الذين عينهم عمر رضي الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده ، فمن زعم أن خلافة عثمان كانت باطلة وأن علياً كان أحق بالخلافة منه فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع مع ما في قوله من إزراء بالمهاجرين والأنصار .

كما دلت عليه الآثار وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما – بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر – أيهما أفضل ؟ فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي وقدم قوم علياً ، وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي ، وإن كانت هذه المسألة – مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة ، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، وعمر ثم عثمان ثم علي ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله .

ويحبون آل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله حيث قال يوم غدير خم : « أذكركم الله في أهل بيتي » .

وقال أيضاً للعباس عمه . وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو

---

* (**أهل بيته** ﷺ) هم : من تحرم عليهم الصدقة وهم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس ، وكلهم من بني هاشم ويلحق بهم بنو المطلب لقوله عليه السلام : « إنهم لم يفارقونا جاهلية ولا إسلاماً » فأهل السنة والجماعة يرعون لهم حرمتهم وقرابتهم من رسول الله ﷺ كما يحبونهم لإسلامهم وسبقهم وحسن بلائهم في نصرة دين الله عز وجل
(**وغدير خم**) : بضم الخاء ، قيل اسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذي بين مكة والمدينة بالجحفة . وقيل خم اسم غيضة هناك نسب إليها الغدير ، والغيضة الشجر الملتف .

بني هاشم – فقال : « والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي » وقال : « إن الله اصطفى بني إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » .

ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ويؤمنون

---

* وأما قوله عليه السلام لعمه : (**والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي**) فمعناه : لا يتم إيمان أحد حتى يحب أهل بيت رسول الله ﷺ لله أولاً لأنهم من أوليائه وأهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه . وثانياً لمكانهم من رسول الله واتصال نسبهم به .

* (**أزواجه ﷺ**) هن : من تزوجهن بنكاح فأولهن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها تزوجها بمكة قبل البعثة وكانت سنه خمساً وعشرين وكانت هي تكبره بخمسة عشرة عاماً ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت وقد رزق منها بكل أولاده إلا إبراهيم ، وكانت أول من آمن به وقواه على احتمال أعباء الرسالة ، وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين عن خمس وستين سنة ، فتزوج بعدها سودة بنت زمعة ، وعقد على عائشة رضي الله عنها وكانت بنت ست سنين حتى إذا هاجر إلى المدينة بنى بها وهي بنت تسع . ومن زوجاته أيضاً : أم سلمة رضي الله عنها تزوجها بعد زوجها أبي سلمة وزينب بنت جحش تزوجها بعد تطليق زيد بن حارثة لها أو على الأصح[1] زوجه الله إياها . وجويرية بنت

---

(١) لا يليق التعبير بعبارة : (أو على الأصح) بل الواجب أن يقال (تزوجها بعد تطليق زيد بن حارثة لها زوجه الله إياها) لأن ذلك هو الموافق لقول الله تعالى ﴿ زوجناكها ﴾ . إسماعيل الأنصاري .

بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده وأول من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنزلة العالية ، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها التي قال فيها النبي ﷺ : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون إن هذه الآثار المروية

الحارث وصفية بنت حيي . وحفصة بنت عمر ، وزينب بنت خزيمة ، وكلهن أمهات المؤمنين وهن أزواجه ﷺ ، في الآخرة وأفضلهن على الإطلاق خديجة وعائشة رضي الله عنهما .

يريد أن أهل السنة والجماعة يتبرؤون من طريقة الروافض التي هي الغلو في علي وأهل بيته وبغض من عداه من كبار الصحابة وسبهم وتكفيرهم . وأول من سماهم بذلك زيد بن علي رحمه الله لأنهم لما طلبوا منه أن يتبرأ من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ليبايعوه أبى ذلك فتفرقوا عنه فقال : رفضتموني ، فمن يومئذ قيل لهم رافضة . وهم فرق كثيرة منهم الغالية ومنهم دون ذلك .

ويتبرؤون كذلك من طريقة النواصب الذين ناصبوا أهل بيت النبوة العداء لأسباب وأمور سياسية معروفة و لم يعد لهؤلاء وجود الآن .

ويمسك أهل السنة والجماعة عن الخوض فيما وقع من نزاع بين الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ما وقع بين علي وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان وما وقع بعد ذلك بين علي ومعاوية وعمرو بن العاص

في مساويهم منها ماهو كاذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون وإما مجتهدون مخطئون وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر حتى إنهم يغفر لهم من السيئات مالا يغفر لمن بعدهم لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم .

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه . فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها

وغيرهم ، ويرون أن الآثار المروية في مساويهم أكثرها كذب أو محرف عن وجهه ، وأما الصحيح منها فيعذرونهم فيه ويقولون : إنهم متأولون مجتهدون ، وهم مع ذلك لا يدعون لهم العصمة من كبار الذنوب وصغارها ولكن ما لهم من السوابق والفضائل وصحبة رسول الله ﷺ والجهاد معه قد يوجب مغفرة ما يصدر منهم من زلات ، فهم بشهادة رسول الله ﷺ خير القرون وأفضلها ، ومد أحدهم أو نصيفه أفضل من جبل أحد ذهباً يتصدق به من بعدهم فسيئاتهم مغفورة إلى جانب حسناتهم الكثيرة .

مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور – ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح ، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما مَنَّ الله عليهم به من الفضائل علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء . لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله .

يريد المؤلف رحمه الله أن ينفي عن الصحابة رضي الله عنهم أن يكون أحدهم قد مات مصراً على ما يوجب سخط الله عليه من الذنوب ، بل إذا كان قد صدر الذنب من أحدهم فعلاً فلا يخلو عن أحد هذه الأمور التي ذكرها ، فإما أن يكون قد تاب منه قبل الموت ، أو أتى بحسنات تذهبه وتمحوه ، أو غفر له بفضل سالفته في الإسلام كما غفر لأهل بدر وأصحاب الشجرة أو بشفاعة رسول الله ﷺ وهم أسعد الناس بشفاعته وأحقهم بها ، أو ابتلى ببلاء في الدنيا في نفسه أو ماله أو ولده فكفر عنه به . فإذا كان هذا هو ما يجب اعتقاده فيهم بالنسبة إلى ما ارتكبوه من الذنوب المحققة فكيف في الأمور التي هي موضع اجتهاد والخطأ فيها مغفور ؛ ثم إذا قيس هذا الذي أخطأوا فيه إلى جانب ما لهم من محاسن وفضائل لم يعد أن يكون قطرة في بحر . فالله الذي اختار نبيه ﷺ هو الذي اختار له هؤلاء الأصحاب ؛ فهم خير الخلق بعد الأنبياء والصفوة المختارة من هذه الأمة التي هي أفضل الأمم .

ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة .

ومن تأمل كلام المؤلف رحمه الله في شأن الصحابة عجب أشد العجب مما يرميه به الجهلة المتعصبون وادعائهم عليه أنه يتهجم على أقدارهم ويغض من شأنهم ويخرق إجماعهم إلى آخر ما قالوه من مزاعم ومفتريات .

* وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة ؛ ودلت الوقائع قديماً وحديثاً على وقوع كرامات لله لأوليائه المتبعين لهدي أنبيائهم ، والكرامة : أمر خارق للعادة يجريه الله على يد ولي من أوليائه معونة له على أمر ديني أو دنيوي ، ويفرق بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة بخلاف الكرامة .

ويتضمن وقوع هذه الكرامات حكم ومصالح كثيرة أهمها :

● أولاً : أنها كالمعجزة تدل أعظم دلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته ، وأنه فعال لما يريد ، وأن له فوق هذه السنن والأسباب المعتادة سنناً أخرى لا يقع عليها علم البشر ؛ ولا تدركها أعمالهم . فمن ذلك قصة أصحاب الكهف ، والنوم الذي أوقعه الله بهم تلك المدة الطويلة

مع حفظه تعالى لأبدانهم من التحلل والفناء . ومنها ما أكرم الله به مريم بنت عمران من إيصال الرزق إليها وهي في المحراب حتى عجب من ذلك زكريا عليه السلام ، وسألها : أنى لك هذا ، وكذلك حملها بعيسى بلا أب وولادتها إياه ، وكلامه في المهد وغير ذلك .

● ثانياً : أن وقوع كرامات الأولياء هو في الحقيقة معجزة للأنبياء ، لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعتهم لأنبيائهم وسيرهم على هديهم .

● ثالثاً : أن كرامات الأولياء هي البشرى التي عجلها الله لهم في الدنيا ، فإن المراد بالبشرى كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ومن جملة ذلك : الكرامات .

هذا ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في هذه الأمة إلى يوم القيامة والمشاهدة أكبر دليلاً ، وأنكر الفلاسفة كرامات الأولياء كما أنكروا معجزات الأنبياء ، وأنكر الكرامات أيضاً المعتزلة وبعض الأشاعرة بدعوى التباسها بالمعجزة ، وهي دعوى باطلة ، لأن الكرامة كما قلنا لا تقترن بدعوى الرسالة .

لكن يجب التنبه إلى أن ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة من أعمال ومخاريق شيطانية كدخول النار وضرب أنفسهم بالسلاح والإمساك بالثعابين والإخبار بالغيب إلى غير ذلك ليس من الكرامات في شيء فإن الكرامة إنما تكون لأولياء الله بحق وهؤلاء أولياء الشيطان .

(فصل)

ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » ، ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس ، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد ، ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الإجماع وضدها الفرقة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين ، والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين ، وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشر في الأمة .

---

* قوله : (**ثم من طريقة أهل السنة إلخ**) : هذا بيان لمنهج لأهل السنة والجماعة في استنباط الأحكام الدينية كلها ، أصولها وفروعها بعد طريقتهم في مسائل الأصول – وهذا المنهج يقوم على أصول ثلاثة :

(فصل)

ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحج والجهاد

● **أولها** – كتاب الله عز وجل الذي هو خير الكلام وأصدقه ، فهم لا يقدمون على كلام الله كلام أحد من الناس .

● **وثانيها** – سنة رسول الله ﷺ وما أثر عنه من هدي وطريقة ، لا يقدمون على ذلك هدي أحد من الناس .

● **وثالثها** – ما وقع عليه إجماع الصدر الأول من هذه الأمة قبل التفرق والانتشار وظهور البدعة والمقالات ، وما جاءهم بعد ذلك مما قاله الناس وذهبوا إليه من المقالات وزنوها بهذه الأصول الثلاثة التي هي الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وافقها قبلوه وإن خالفها ردوه أياً كان قائله وهذا هو المنهج الوسط والصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه ولا يشقى من اتبعه ، وسط بين من يتلاعب بالنصوص فيتأول الكتاب وينكر الأحاديث الصحيحة ولا يعبأ بإجماع السلف ، وبين من يخبط خبط عشواء فيتقبل كل رأي ويأخذ بكل قول لا يفرق في ذلك بين غث وسمين وصحيح وسقيم .

* قوله : (**ثم هم مع هذه الأصول إلخ**) : جمع المؤلف في هذا الفصل جماع مكارم الأخلاق التي يتخلق بها أهل السنة والجماعة من الأمر بالمعروف وهو ما عرف حسنه بالشرع والعقل ، والنهي عن المنكر

والجمع والأعياد مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً . ويحافظون على الجماعات ويدينون بالنصيحة للأمة ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه » وقوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ويأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » ويندبون إلى أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن

وهو كل قبيح عقلاً وشرعاً على حسب ما توجبه الشريعة من تلك الفريضة ، كما يفهم من قوله عليه السلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ، ومن شهود الجمع والجماعات والحج والجهاد مع الأمراء أيّاً كانوا لقوله عليه السلام : « صلوا خلف كل بر وفاجر » ومن النصح لكل مسلم لقوله عليه السلام : « الدين النصيحة » ومن فهم صحيح لما توجبه الأخوة الإيمانية من تعاطف وتواد وتناصر كما في هذه الأحاديث التي يشبه فيها الرسول المؤمنين بالبنيان المرصوص المتماسك اللبنات أو بالجسد المترابط الأعضاء ومن دعوة إلى الخير وإلى مكارم الأخلاق ، فهم يدعون إلى الصبر على المصائب والشكر على النعماء والرضا بقضاء الله وقدره إلى غير ذلك مما ذكره .

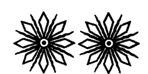
السبيل والرفق بالمملوك وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة . وفي حديث عنه أنه قال « هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب ، هم أهل السنة والجماعة ، وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولو المناقب المجثورة والفضائل المذكورة ، وفيهم الأبدال ، وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ، وهم الطائفة المنصورة الذي قال فيهم النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » .

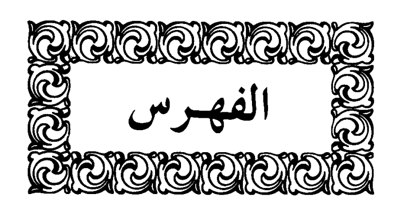
---

* وأما قوله : (**وفيهم الصديقون إلخ**) : فالصديق صيغة مبالغة من الصدق يراد به الكثير التصديق ، وأبو بكر رضي الله عنه هو الصديق الأول لهذه الأمة ، وأما (**الشهداء**) : فهو جمع شهيد وهو من قتل في المعركة ، وأما (**الأبدال**) : فهم جمع بدل وهم الذين يخلف بعضهم بعضاً في تجديد هذا الدين والدفاع عنه كما في الحديث : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها » والله أعلم .

نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ، والله أعلم .
وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .




الفهرس

□ الفهرس □

الموضوع	الصفحة

* * *



هاتف : ٢٩٨٤٣٧٥
فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ٠١٠١٩٠٠٠٣٨